حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com
دورية تصدر كل شهرين
السنة الخامسة عشرة / (مارس - أبريل) ٢٠٢٠
77
Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | March - April 2020

دورة الحياة

لا تيْأسي وترقبي عَوْدَ الرّبيعْ
حتّى وإنْ عصَفَ الشتاءُ بحُسْنِ منظركِ البَديعْ
شرقًا وغربًا، بَدّدَ الأوراقَ هجماتُ الصقيعْ
فغدًا يذوبُ الثلجُ ينْكسرُ الجَليدْ
حالُ الحيَاةِ تدورُ دومًا بالجميعْ

***

٢ أصوات وأقوال ذهبية تخصُّ عالمنا/**فتح الله كولن**
٦ عينك عنوان صحتك **د. محمد السقا عيد**
١٠ الإبداع بين الذكاء والعبقرية **د. بركات محمد مراد**

العقد الذهبي

"إن لعالَمنا أصواتًا وأقوالاً سحرية يتعذّر العثور عليها في غيره، ويمكن أن نسمّي هذه الأصوات والأقوال بـ"الأمور المعبِّرة عن عقائدنا وأفكارنا وموقفنا تجاه الحق تعالى". بهذه العبارات يفتتح الأستاذ "فتح الله كولن" مقالة هذا العدد من حراء "أصوات وأقوال ذهبية تخصُّ عالمنا"، مشيرًا إلى أن هذه الأصوات والأقوال، بمثابة عقد ذهبي فريد يربط الأرض بالسماء، وبيان مثالي على عظمة الله تعالى وقيوميته، وتبادل مستمر وحيوي بين المرسل والمتلقي، تبادل يجعل الأرض مكتسية بحلة "إياك نعبد" على الدوام.

وإذا كان الأستاذ كولن قد أشار إلى أن الأصوات والأقوال دليل على التبادل المستمر، فقد تحدث "الزبير مهداد" عن دور المسجد في هذا التبادل، وكيف كان للمسجد دور حضاري في نسيج الأمة.. بدء من دور المسجد في النسيج الحضاري، مرورًا بالدور الاجتماعي الأمني، وانتهاءً بالدور الثقافي.

وفي مجال العلوم يشرح "محمد السقا عيد" إمكانية معرفة المرض الذي يعاني منه الجسد بمجرد النظر إلى عيني صاحبه.. فالعيون ليست فقط مرآة للروح ولكنها أيضًا نافذة على الصحة العامة.

وتستعرض "صهباء بندق" في مقالها "كيف تستشعر خلايانا غاز الحياة؟" رحلة علماء حصلوا على جائزة نوبل في الطب ٢٠١٩، بسبب اكتشافاتهم ما يتعلق باستشعار الخلايا للأكسجين والآليات الجزيئية المسؤولة عن تكيف الخلايا مع مستويات الأكسجين المتقلبة.

ويطلعنا "محمد أعراب" من خلال مقاله "التصوف ورؤية العالم" على نظرتين للعالم، النظرة الفلسفية والنظرة الصوفية، ومع كون التصوف يختلف عن العلم والفلسفة والفن، باعتباره تجربة روحية ونموذجًا خاصًّا، إلا أنه يجيب على كثير من الأسئلة التي تفرضها بعض النظريات الفلسفية أو الفكرية، والمتعلقة بالله والإنسان والعالم.

وقد شهد التصوف الإسلامي عبر تاريخه الطويل عديدًا من الشخصيات الرائدة، التي استطاعت بقلبها العرفاني وعقلها المعرفي أن تعيد التصوف إلى إطار المعايير الإسلامية السُّنية، وتحافظ على بقائها داخل حدود الشريعة؛ عن طريق غوصهم في مفاهيم التصوف الحقيقية وربطها بمفاهيم العصر.. وانطلاقًا من هذه النظرة، يستعرض "محمد أنس أركنه" نظرة الأستاذ فتح الله كولن للتصوف عن طريق عقد مقاربة معاصرة لفهم التصوف من خلال التلال الزمردية.

هذا إلى جانب عدد آخر من المقالات الأدبية والعلمية والثقافية التي تسهم في تشكيل الإطار العام لهذا العدد، وبالله والتوفيق. ■

المحتويات

أصوات وأقوال ذهبية تخصُّ عالمنا / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
عينك عنوان صحتك / د. محمد السقا عيد (علوم)	٦
الإبداع بين الذكاء والعبقرية / د. بركات محمد مراد (تربية)	١٠
بشارة الغراب / حسين شعبان وهدان (أدب)	١٤
المسجد ودوره في النسيج الحضاري / الزبير مهداد (ثقافة وفن)	١٨
نظرية التطور بين يدي دليل الاختراع عند النورسي / د. عبد القدوس أنحاس (قضايا فكرية)	٢٢
القصة القصيرة وتحديات العصر / سمر فتحي (أدب)	٢٦
التصوف ورؤية العالم / د. محمد أعراب (قضايا فكرية)	٣٠
تدريب الأجيال على الخروج من ضيق البدن / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
بانت سعاد / د. أحمد يحيى علي (أدب)	٣٤
الاستشراق أم الاستغراب؟ / محمد جمال المغربي (قضايا فكرية)	٣٨
البعد الروحي في البناء الحضاري / بشرى البداوي فونتير (قضايا فكرية)	٤٢
مظهر الإنسان وجوهره / د. ناصر أحمد سنه (قضايا فكرية)	٤٥
قيثارة الشعراء / صبغة الله الهدوي (أدب)	٤٩
كيف تستشعر خلايانا غاز الحياة؟ / د. صهباء بندق (علوم)	٥٢
هل للأطفال شعر في التراث؟ / د. إيهاب عبد السلام (تربية)	٥٥
التلال الزمردية.. مقاربة معاصرة لفهم التصوف / محمد أنس أركنه (تحليل كتاب)	٥٩
عبرات / د. حسن الأمراني (شعر)	٦٣

أصوات وأقوال ذهبية تخصُّ عالمنا

إن لعالَمنا أصواتًا وأنفاسًا سِحريةً يتعذّر العثور عليها في غيره، ويمكن أن نسمي هذه الأصوات والأقوال بـ"الأمور المعبِّرة عن عقائدنا وأفكارنا وموقفنا تجاه الحق تعالى". وقد تداخلت هذه الأصوات والأنفاس بحياتنا الفردية والعائلية والاجتماعية، بحيث إننا نترنّم ونتنفس بها في كل مكان وزمان؛ بدءًا بمعابدنا، ومرورًا بشوارعنا، ووصولاً إلى غرف نومنا، لا سيما في بعض ليالي الأنس وأيام الصفاء ذات النورانية الخاصة، إذ إنّ ما حولنا يكتسب بهذه الأصوات والأنفاس حالةً لدنّية تجعل كل شيء خارقًا للعادة، وتتلوّن الحياة بلَون سحري أخاذ، وتنسكب من كل صوب أضواءٌ في مختلف طول الموجات، وتستمع الآذان بذَوق

فائقٍ إلى هذه الأصوات الخاصة التي تحكي خرير أنهار الفـردوس.. ويفتح هذا الحالُ والجوُّ السـحريُّ أرواحَنا ويعمّقها ويلطّفها ويجعلها أخروية، بحيث إننا لا نودّ أن تنقضـي تلك السـاعات والدقائق والثواني السـحرية، بل إنـه علـى الرغـم من عـدم وجود مناسـبة ومواءمـة -وفقًا لقانـون السـبب والنتيجـة- بيـن تلـك الأقـوال والبيانات والمَشاهد السحرية وما نعيشه من الشوق والطرب، فإننا نشـعر بـأن هنـاك قـوة خفية تسـحبنا في شـلال عـارم من الفرح والسـرور بشـكل يفوق مسـتوانا ومسـتوى أفكارنا فنعيش حالة متداخلة من الحيرة والانبهار.

وأحيانـا تكـون هنـاك أوقـات سـحرية هـي "سـاعات الإجابة" في كل يوم يتذوق الإنسان فيها اللهجة الحقيقية واللـون الحقيقـي والطعـم الحقيقـي للحيـاة، فيكون كلُّ مـا نشـاهده فـي تلـك السـاعة وكلُّ كلمـة مباركـة تطـرق أسـماعنا وكلُّ خطوة نخطوها في سـبيل الزلفى إلى الله، أمورًا تَسْحَرُنا بتأثيرها، ويَخرج ما نراه من الأشياء العادية ومـا تَعوَّدْنا سـمعه من الأصـوات والأنفاس الطبيعية عن حـدوده وأُطُـره، ويتحلـى بماهيـة مختلفـة، فنحـس بهـا ونسمعها وكأنها من خوارق العادات.

وفـي مثـل هـذه الحـالات التـي يتحقـق فيهـا الشـعور بأجواء شبه سحرية، والإحساس بنسمات تَهُبُّ من صوب العوالـم الماورائيـة، فإننـا نحـس فـي أعماقنـا بِرِقَّـة التوجه الإلهـي الـذي يلطّـف كل شـيء، وبجـوّه السـاحر لأقسـى القلوب، ونشعر بأننا قد تحوَّلنا إلى شيء آخر، بل أصبحنا روحانيين تمامًا..، ولا نشك في أن الذين يستطيعون قراءة ذواتهم وما حولهم قراءةً صحيحة، يَشـعرون بذلك.. فإننا حينما نقيِّم الموضوع نتناوله من زاوية أحاسيسنا نحن.

ويمكـن أن نسـمي كل هـذه الأمور، قصائـدَ وألحان "ساعات الإجابة" التي تتسلل إلى قلوبنا بسبب أو بدون سـبب، فتوقـظُ مشـاعرنا النائمـة، وتذيقنـا أقصـى أنـواع الفـرح والحبـور.. قصائـدَ وألحانًـا لمضاميـنَ ومفاهيـمَ اقتبسـتها أرواحُنـا مـن محيطهـا واسـتفادت منهـا.. إن أنـواع هـذا الإحسـاس والحدس فـي جغرافيتنـا المباركة تتمتـع بسـحرية وتفسـير مختلف، ولا يمكن سـماع مثل هـذه الأصوات والأقـوال المُتَمَتِّعة بهذه الميزات، وكلما ارتفعت وطبَّقت آفاقنا، وكلما طرقت أسـماعَنا فانسابت إلى قلوبنا، إذا بنا في خضمّ طوفانٍ من المشاعر الجياشة، فنُرخي بأنفسنا في أجوائها السِّحرية.

أجل؛ إننا في كل يوم نتقاسـم هذه المشـاعر الجياشة عـدة مـرات بأصـوات الأذان التـي تُرفـع مـن المـآذن وبامتداداتهـا التـي تـدوِّي في داخل المسـاجد، وكم مرة

نتعش ونرتعش في بيوتنا وفي داخل غرف نومنا ونفرح مثل الأطفال بسبب تلك اللفتة الربانية التي تدعونا للمثول بين يديه، ونشارك بأصواتنا في هذه النغمات الإلهية التي تخاطب وجداننا.

إننا تجاه كل صوت ومشهد يعلن عن عظمة الله نقول: "الله أكبر" معلنين عن عظمته، وعندما يتم تعداد النعم التي تنهمر من لدنه فإننا نقابل ذلك بقولنا: "له الحمد والنعمة"، وعندما يكون هناك بيان أو إيماءة أو إشارة تُذكِّر بأنه ليس له شبيه أو نظير نقول: "نسبّح ونقدّس لك"، فبكل وسيلة نفكر فيه تعالى دائمًا ونذكره، ونراجع علاقتنا معه، ومن يدري كم مرة نخوض كلَّ يوم بفكرنا وخيالنا في معيته التي هي روح الأرواح.

وتلهج ألسنتُنا داخلَ دُور العبادة وخارجها بألفاظ نورانية يمكن أن نسميها: "الكلمات الطيبة"، تلك الكلمات التي اتحدت مع حياتنا وانسجمت بها بحيث إننا نرددها كل يوم مائة مرة من حيث ندري أو لا ندري، مثل ما ترددها الملائكة في السماء وسائرُ الكائنات الحية وغير الحية بلسان حالها وكيفياتها، وبالأخص هناك البعض منا كلما دَوَّتْ هذه الأصوات فيما حوله فإنه يحاول أن يستشعر ما يفور بداخله من مشاعر الإعجاب والحماس ليس باسمه فقط بل إنه يحس بها وكأنه مبعوث يمثل كل سكان الأرض والسماء وكلَّ الكائنات الحية والجامدة، مستخدمًا كل خلايا دماغه وجميعَ القوى الكامنة في أعماق ضميره.. بل إن هذا الاستشعار والإحساس يبلغ فينا إلى درجة من العمق بحيث تفيض فينا سيول الشوق والحماس، وتنتاب أرواحنا أفكارٌ متعالية، وتتدفق من قلوبنا مشاعرُ سامية، فنترك التعبير عنها للآهات والتنهُّدات ونوبات البكاء التي تنطلق من دواخلنا، وللدموع التي تنهمر من أعيننا كي تفسرها أعمق تفسير.

إن هذا المستوى من الاستشعار والحدس والتعبير الذي يتمتع به أصحاب القلوب المؤمنة لهو بمثابة مفتاح ذي أسرار؛ كما أنه يفتح مغاليق قلوبهم، فهو بسحره الخاص يوقد جذوات في قلوب الآخرين. أجل، إن الذين يُصغون إليهم من دون أفكار مسبقة، يشعرون بأن وجدانهم بدأ يتحرك بعملية ذات أسرار لا يدرون كنهها، ويشاهدون خارطة مشاعرهم مرة أخرى بشكل مختلف، ويتبسمون بغزارة في وجه طالعهم السعيد.

وأحيانًا يحصل تبادل حي بين المرسِل والمتلقي في الأحاسيس والمشاعر الجياشة، ويَلِجان في جوٍّ سحري بحيث إن كلًّا من الطرفين يدخل تحت تأثير الطرف المقابل، وعندما تَصدُر من أحدهم كلمةٌ نورانية، أو ينعكس على ظاهرِ حالِهِ إحساسٌ نابع من القلب فإنه يُحرِّك على الفور كلَّ مَن هناك ممن يتقاسمون معه نفس الإيمان والمعرفة، ويَجعلُ الجميعَ يتكلمون بالأمور ذاتها ويجيشون بالأحاسيس عينها، فكأن هؤلاء الناس كانوا يريدون أن يقولوا أشياء ولكن لم يستطيعوا أن يقولوها، وكانوا يفكرون بأمور ولكن كانوا عاجزين عن التعبير عنها، وكانوا يَشعرون بأمور ولكن ما كانوا يطيقون التَّفَوُّه بها، فأنجزها الآخرون نيابةً عنهم، فهم بدورهم شاركوهم فيها، بحيث إن هذه الألفاظ السحرية ما إن تطرق الأسماع إلا وتَظهر أمارات الابتهاج الكامن في القلوب، وتصبح الأرواح وكأنها روحٌ واحدةٌ، وتتحول أنواع المحبة والعلاقات إلى شلال واحدٍ من المحبة والشوق، وهكذا يَسمع كل واحد منهم الأصواتَ والكلمات النابعة من أعماق ضميره في نفس الوقت الذي يتحدث به، كما أنه يتشارك مع المئات والألوف من الآخرين في الأحاسيس والمشاعر والأفكار، وبذلك يُخرج القضيةَ من كونها أمرًا فرديًّا إلى أنفاس تنطلق من أرجاء الأرض والسماوات.

وإذا كانت هذه الأصوات والكلمات تحمل لونًا من تعظيم الحق تعالى وتقديسه، فإن كل من يَسمعها ينتعش وكأنه تلقَّى إشارة تدعوه إلى التمكين والحذر، وإذا كانت الأصوات تحمل طابع اللطف والإحسان إذا بالسامع يفيض بمشاعر الشكر والامتنان، وإذا كانت تُذَكِّر بالأمل والشوق فإن سامعها يطفح ابتهاجًا واستبشارًا، وإذا كانت من النوع الذي يدعو إلى محاسبة النفس فإنك تراه يتمتم بعبارات التحسر، والواقع أن جل هذه الأصوات والألفاظ بقطع النظر عن محتوياتها، لأنها تعبر عن معتقداتنا وعن موقفنا تجاه ربنا لا ينحصر تأثيرها بزمان أو مكان معين، بل إنها من حيث كونها أنفاسًا معبِّرة عن الحقيقة المطلقة التي انفطرت عليها ذاتياتنا سرعان ما تطل برأسها من خلال أدنى ما يُذَكِّر بها في أيّ مكان وأيّ زمان وأيّ فصل من فصول الحياة،

hiragate.com

hiragate.com

فتثير كل مشاعرنا، وتهيّج كل عواطفنا الغافية، وتُشعل أفئدتنا، وتُذْكي أرواحنا، وتُحْدث فيضانات تفوق حدود التصور في عامة الضمائر التي لم تَفقِد حساسيتها.. فتَجذبنا إلى نقطةٍ وترفعنا إلى مستوى محفوفٍ بالأسرار، بحيث نسمو ونَرقى في كنف الحياة القلبية والروحية، فيصبح الواحد منا بحرًا وقد كان قطرةً، وشمسًا وقد كان ذرةً، و"كلَّ شيء" وقد كان "لا شيء في لا شيء".

وهذه الكلمات النورانية التي تبعث الانشراح في قلوبنا أنفاسٌ سِحرية لا تزال ألسنة المؤمنين الحقيقيين رطبةً بها، وتلهج بها ألسنتُنا نحن أيضًا، وقد تداخلتْ بكل فصل من فصول حياتنا؛ فبتنا نستمع إليها بمسامع أرواحنا على اعتبار أنها من أزهى الأصوات والكلمات في عالمنا الذي نعيش فيه، ونُقَيِّمُها من منظورِ أنها مفاتيح سِحرية لما ننتظر تحقُّقه من رؤًى حُلوةٍ طيبةٍ.

وفي سياق تقديسنا نقول: "سبحان الله"، على قصد أن نقول فيه ﷻ قولاً ينبغي أن نقوله، بالإضافة إلى أننا نأمل أن يترتب على هذه الجملة المباركة نِعَم أخروية عظيمة لم نحسب لها حسابًا، وعندما ينهمر علينا وابل من الألطاف الإلهية فإننا نتنفس بـ"الحمد لله"، فنعرب عن شكرنا له تعالى بالإضافة إلى طلب المزيد منه، كما نتخيل المنحَ الإلهية الأخروية التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر، وعندما نرى مشهدًا يعكس أجواء العظمة والكبرياء ندوّي بصوت: "الله أكبر"، وننادي بأعلى أصواتنا بأننا مُشاهِدون لعظمةٍ سامية، ونرتعش بمشاعر الرهبة التي تأتينا في مختلف طول الموجات، ونراجع في كل يوم أفكارَنا ورؤانا الدنيويةَ والأخروية في ظل هذه الأصوات والكلمات، ونفحص علاقتنا بالله ونرتب أمورنا وأحوالنا من جديد..

ونَفتتح الصلوات بـ"الله أكبر"، ونوسع تفكيرنا بـ"الكلمات الطيبة" الأخرى، ونعلن ثقتنا به واتكالنا عليه تعالى مرة بعد أخرى، ونطلب ونتسول منه تعالى أن يجعلنا من أصحاب الثقة، وعندما نقول: "اللهم أنت السلام ومنك السلام"، فإننا نعبر عن مطلوبنا منه بالإضافة إلى أننا نؤكد موقفنا الحقيقي تجاهه، ونكرر دائمًا من دون كلل أو ملل أن كل شيء تحت تصرفه، وفي كل صباح ومساء نعلن بصوت جهوري بتعبيرات واضحة

إن الذين يُصغون إلى أصحاب القلوب المؤمنة من دون أفكار مسبقة، يشعرون بأن وجدانهم بدأ يتحرك بعملية ذات أسرار لا يدرون كنهها، ويشاهدون خارطة مشاعرهم مرة أخرى بشكل مختلف، ويتبسمون بغزارة في وجه طالعهم السعيد.

أفكارنا التوحيدية، ومن يدري كم نجدد في اليوم الواحد أن هدفنا هو تحقيق رضاه تعالى، وأننا نريد مشاهدة جماله ولقاءه سبحانه، ونغدو ونروح، ونلف وندور، وفي نهاية المطاف نلوذ برحمته وشفقته وعنايته، ونردد كل يوم من حيث ندري أو لا ندري عبارات من أمثال: "عفا الله عنا جميعًا"، و"وفقنا الله للإخلاص"، و"رزقنا الله الصبر والسلوان"، و"نوَّر الله قلوبنا".. وبهذه الكلمات نصبح ونمسي مُعْربين عن تميزنا في باب العلاقة معه.

إن أفكارنا وأقوالنا وأنفاسنا النابعة عن معتقداتنا الأساسية لا تنحصر بما سَرَدناه هنا، بل إن مثل هذه التعبيرات والبيانات والأنفاس تطل برأسها في شتى نواحي حياتنا الحسية والفكرية والروحية والبديعية، سواء في أقوالنا المنظومة والمنثورة من أمثالنا وأشعارنا وموسيقانا -وكنت أود أن أسرد نماذج منها- فتُقدم لنا من ثقافتنا الغنية الراسخة ألوانًا وأشكالاً عديدة..

وهذا الغنى والثراء ينبع من العقائد والأفكار التي تَبَنَّاها أفراد هذه الأمة ووقفوا عندها وعاشُوها وصارت راسخة في منطقة اللاوعي عندهم، وبما أن الجميع آمن بالأمور نفسها وتقاسم الأفكار عينها فمن غير المتوقع قطعًا أن يستغرب السامع ولا يجدَ مغزى لهذه الأفكار المطروحة والأقوال المسرودة.. فكل واحد منهم يفهم مقصود الآخر، وتجري كل محاوراتهم ومذاكراتهم في جو طبيعي تمامًا.. كما أن مقابلة الأفكار والأقوال تجري في نفس الإطار من اللطافة والرقة. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "ياغمور" التركية، العدد: ٢٥ (٢٠٠٤م)، تحت عنوان "Bizim Dünyamıza Has Altın Sesler ve Sözler". الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

د. محمد السقا عيد*

عينك عنوان صحتك

تعتبر العين بمثابة شاشةِ رصدٍ للتغيرات التي قد تتعرض لها مختلف مناطق الجسم، حيث يمكن اكتشاف العديد من المشاكل الصحية من خلال فحص العين، لذلك يقال "إن العين مرآة الجسد"، أو "اعرف صحتك من عينيك". وقد أكد باحثون أن فحص العين غالبًا ما يكشف عن العديد من المشاكل الصحية الخافية عن الإنسان ومن ضمنها أمراض خطيرة، ولكن كيف ذلك؟

ذكرت دراسة بريطانية نشرتها مواقع إلكترونية عديدة منها مجلة "ويب ميد" الأمريكية، أن العديد من الأمراض التي يعاني منها الجسم، يمكن الكشف عنها من خلال لون وشكل العين، على غرار ما يراه الأطباء من تغير في شكل أظافر الإنسان وبشرته.

فلون العين يدل على الإصابة بأمراض معينة؛ فمثلاً صفار بياض العين، قد يعني ارتفاع نسبة الصفراء في الدم، أو وجود مشاكل التهابات الكبد، أو انسداد بالقنوات المرارية، أو وجود أورام في الرأس، أو قصور بالغدة الدرقية، أو ارتفاع نسبة الكوليسترول في الدم.. كما أن احمرار بياض العين، قد يكون مؤشرًا على وجود التهاب بالكبد، أو ارتفاع ضغط الدم، أو الإصابة بالسكري.. وهذه الحلقة البيضاء التي تظهر حول الجزء الملون من العين، هي في الواقع قوس قرني وهو عبارة عن تراكم للدهون في العين، وهذه نتيجة طبيعية للتقدم في العمر، ولذلك يعتبر الأمر

متواترًا وغير ذي أهمية عند الذين تجاوزوا عمر الستين. لكن في حال ظهور هذه الحلقة قبل عمر الخمسين، فإنها قد تكون مرتبطة بارتفاع مستوى الكوليسترول، أو التريجليسريد في الدم، وكلاهما من عوامل الخطر المسببة للأمراض القلبية الوعائية. وتعتبر الدموع الغزيرة في العينين مؤشرًا على حدوث ضرر في العين نفسها، ويرى المختصون أن ذرف الدمع العفوي المترافق مع ألم في العين، يمكن أن يدل على عدوى فيروسية، أو دخول جسم غريب وحدوث ضرر معين في قرنية العين. وذكرت الدراسة أن العين الحمراء هي مشكلة تبدو شائعة، لكنها إن استمرت فإن ذلك يكون مؤشرًا على مرض في الغدد، أو نوع من الحساسية من جسم غريب قد لا يرى أبدًا بالعين المجردة.

ماذا عن باطن العين؟

شبكة العين التي تبطن قاعها عبارة عن نسيج حساس، وبها شبكة من الشعيرات الدموية الدقيقة، ما يسمح بعكس صورة أحوال صحة الجسم، خاصة الدورة الدموية والتأثيرات المختلفة للأمراض على شرايينها. حدقة العين تسمى "شباك أو نافذة الجسم"، حيث تدلنا الرؤية من خلالها على وجود العديد من الحالات المرضية ومتابعة مدى تطورها. وقد تحدّث الدكتور "ليون فانيه" عن العلاقة الوثيقة بين صحة الحدقة (البؤبؤ) وبعض الاضطرابات الجسدية أو السيكولوجية.

فانقباض الحدقة يعنى إما التهاب الشبكية، وإما وجود جسم غريب في القرنية، أو التهاب السحايا، أو تسمم الدم بالبول، أو هزال نتيجة مرض مزمن، أو تسمم الجسم بواسطة المخدرات والكحول.. كذلك فإن تمدد الحدقة هو دليل على زَرَق العين، أو صدمة جرحية، أو مرض السفلس، أو انسجام بالجفن.. أما في حالات التمدد المستمر، فهذا دليل على التسمم بإحدى المواد المسممة كالكوكايين أو الأتروبين. إذن، فكل تغيير في شكل الحدقة -انقباضًا أو تمددًا- هو نتيجة مباشرة لمرض عضوي يجب البحث عنه لمعالجته.

كذلك الأمر في حال حدوث تطاول عامودي للحدقة، يعنى احتقان الدماغ. وكل تطاول أفقي يعني اضطراب مركز الدماغ والغدد أيضًا، وخاصة الدرقية والنخامية والبصلة السيسائية. وفي مرض ارتفاع ضغط الدم يحس المريض بغشاوة أمام عينيه في بعض الأحيان، وذلك نتيجة تمزق بعض الأوعية الشعرية الدفينة، وعند فحص قاع العين يتبين وجود تصلب في الشرايين، أو أنزفة، أو ارتشاحات بالشبكية، أو تورم في حلمة العصب البصري.. وفي هذه الحالة ينصح المريض بعلاج مرض السكري، أو تخفيض ضغط الدم. وفي أمراض الكلى كثيرًا ما تظهر جيوب تحت جفون العين، بالإضافة إلى ارتشاحات زائدة قد تؤدي إلى انفصال شبكي ثانوي.

أما في تسمم الحمل فينصح طبيب العيون بأخصائي الولادة، بسرعة إجهاض الحمل؛ خوفًا على حياة الأم إذا وجد في قاع العين علامات خاصة، مثل ضيق الشرايين والانفصال الشبكي الثانوي الناتج من الارتشاحات. كما أن أمراض القلب يمكن كشفها بتغير لون العيون التي تصبح زرقاء، وهذه الزرقة دليل على فقر الدم.

أما في زيادة الضغط داخل الجمجمة، سواء الحميد أو الناتج عن وجود أمراض بالمخ، فقد يكون رأيَ طبيب العيون العاملُ المساعد لأخصائي الأعصاب أو جراح المخ، في تقدير العلاج

الناجح للمريض، إذ إن ارتفاع الضغط داخل الجمجمة، قد يؤدي إلى تورم حلمة العصب البصري، أو شلل في عضلات العين، أو جحوظ العين، أو ضمور العصب البصري، وينقذ العلاج المبكر في الوقت المناسب، المريضَ من فقد البصر. وفي الروماتيزم قد تتأثر العين بالاحمرار نتيجة التهاب الصلبة، أو بياض العين، أو التهاب القزحية والجسم الهدبي.

يقول "ميتشل مونسون" رئيس جمعية البصريات الأمريكية: إن التهاب العصب البصري هو أحد الأعراض التي تكشفها العين، وتدل على الإصابة بمرض آخر هو التصلب العصبي المتعدد. ويصيب التهاب العصب البصري ٧٥٪ من المرضى المصابين بمرض التصلب العصبي المتعدد، بحسب ما أورد موقع "ريدرز دايجيست".

العين دون نتيجة إلا الصداع، الذي لا يشفى بأي دواء إلا بالنظارة، والنظارة غير المضبوطة في وضعها أو في صناعتها قد تؤدي إلى الصداع أيضًا.

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي للصداع في العين، الحول الخفي أو الكامن، ويحدث هذا في العين التي عندها استعداد لحدوث حَوَل، فتبذل العينان جهدًا عصبيًا عضليًا مستمرًا لكي تحافظان على النظر الموحد بالعينين، هذا الجهد المتواصل المستمر حتمًا سيؤدي في لحظة ما إلى الصداع، ولن تنفع أي وسيلة علاج إلا علاج الحول الكامن في صورة نظارة طبية، أو تدريبات لعضلات العين، أو عملية جراحية أحيانًا في عضلات العين.

أما بعد سن الأربعين فإذا استبعدنا الأسباب السابقة، فقد يصحب الصداع وجع وألم في العين -مع احمرار

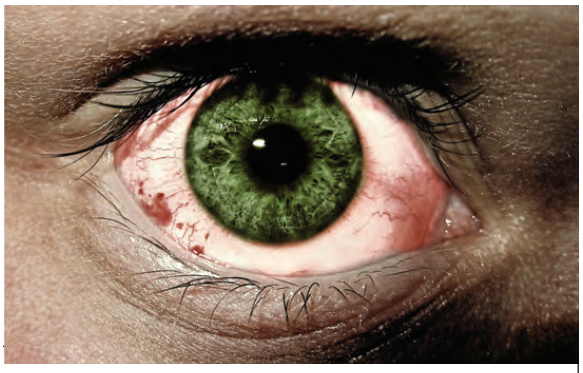

إن ارتفاع الضغط داخل الجمجمة، قد يؤدي إلى تورم حلمة العصب البصري، أو شلل في عضلات العين، أو جحوظ العين، أو ضمور العصب البصري، والعلاج المبكر ينقذ المريضَ من فقد البصر.

الشكوى من الصداع

الصداع من أكثر الشكاوى انتشارًا بين الناس، وأسبابه عديدة، ومن أكثر أسبابه انتشارًا أخطاء انكسار العين، خصوصًا طول النظر والاستجماتيزم، ونادرًا قصر النظر؛ ففي طول النظر تحاول عضلات العين الداخلية باستمرار إصلاح خطأ الانكسار لتكون صورة واضحة على الشبكية، ويزداد هذا المجهود عند النظر للأشياء القريبة مثل القراءة. والعين في طفولتها وشبابها تملك فائضًا من قوة تكيف الإبصار، ولكن مع مرور الوقت يقل هذا الفائض ويبدأ ظهور الصداع عند القراءة أو مشاهدة التلفزيون، وهي علامة لحاجة العين للمساعدة بنظارة طبية.

أما في الاستجماتيزم فالعين تحاول بصفة مستمرة إصلاح الصورة على الشبكية من خلال انقباض عضلات

وتدميع- قد يضعف النظر بدرجة بسيطة كما لو كان زجاج النظارة عليه تراب، مثل حالات التهاب القزحية، أو قد يكون ضعف النظر شديدًا مع الصداع الشديد كما في حالة الجلوكوما الحادة، لذلك فأي صداع يأتي بعد سن الأربعين لا بد من فحص العينين. إذن، لا بد للمريض الذي يشكو من الصداع أن يراجع أخصائي العيون؛ للتأكيد أو استبعاد أن يكون السبب في العين. ومرضى السرطان يسارع أطباؤهم بطلب نصح طبيب العيون إذا اشتكى المريض بأي زغللة؛ خوفًا من انتشار المرض بالعين أو بالمخ، حتى يمكنهم التحكم في ذلك، سواء بالأدوية أو بالعلاج الإشعاعي.

وقد يكون طبيب العيون الدقيق في فحصه أول من يكتشف أحد أمراض الجسم قبل أن يشكو المريض

وقبل أن يكتشفه الطبيب الباطني، وبذلك يمكن توجيه المريض نحو خط العلاج السليم وفي الوقت المبكر المناسب، ولذلك كان من المناسب ومن المفيد، فحص العين دوريًّا -على الأقل كل سنة- وخصوصًا لكل من يتعدى الأربعين ربيعًا.

الأمراض النفسية وتأثيرها على العين

من أشهر الأمراض النفسية تأثيرًا على العين، مرض الهستيريا الذي يحدث في الشابات أو النساء وبعض الشباب الذين يتعرضون لأزمات نفسية؛ حيث يشكون من فقد الإبصار فجأة، وعدم القدرة على مواجهة الضوء. وقد يوجد ازدواج في الرؤية، وأخصائي العيون وحده هو القادر على اكتشاف التشخيص السليم وتفريقه عن الأمراض العضوية، ففي هذه الحالات لا يجد أخصائي العيون أي علاقة في العين أو قاع العين تفسر هذا الضعف المفاجئ في البصر، فحين يدّعي شخص أنه فَقَد البصر في عين واحدة أو العينين نتيجة خناقة مثلاً، يستطيع أخصائي العيون أن يكشف عكس هذا الادعاء واستبعاد أي سبب عضوي في العين، ويثبت أن العين ترى جيدًا وذلك بطريقة لا يمكن أن يحس بها المدعي.

أذكر أنه عندما كنت نائبًا للرمد بمستشفى رمد دمياط عام ١٩٩١م، جاءتني سيدة في أواخر العقد الخامس من عمرها تشتكي من ضعف الرؤية بعينيها مع دَغَش وزغللة بالعين، فقمت بفحص السيدة فحصًا شاملاً، وفحصت قاع العين، ثم فاتحتُها بشكواها قبل أن تبدأ الكلام، فقلت لها على الفور: أنتِ مصابة بالسكر، قالت: نعم، ثم واصلتُ بالكلام وقلت لها: أنتِ مصابة به منذ أكثر من عشرين سنة، قالت: صحيح. ولكن بدا عليها الاستغراب الشديد وقالت: هل حضرتك منجم؟ كيف عرفت هذه المعلومات مع أنني لم أخبرك بها؟ فتبسمت وقلت لها: لقد أخبرتْني عيناك بما قلت، قالت: كيف؟ قلت لها: ألم تسمعي المقولة السائدة "العين مرآة الجسم"، قالت: نعم سمعتها، قلت لها: لهذا فحصت قاع العين فحصًا جيدًا وتبين لي وجود عبث شبكي سكري (D.R.) متمثلاً في وجود بعض الأنزفة والارتشاحات حول مقلة العين، مع بعض الانتفاخات والتعرجات بالأوعية الدموية بشبكية العين، فقالت: لا أفهم ما تقول! فقلت

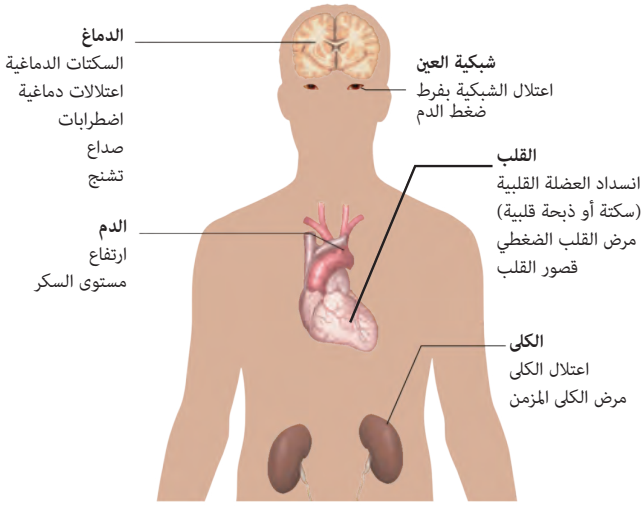

المضاعفات الرئيسية لفرط ضغط الدم المستمر، بينها شبكة العين.

لها: تعالي نتصور أن الأوعية الدموية الدقيقة للشبكية تماثل مواسير المياه والصرف الموجودة في أي عمارة، والمفروض أنه بمرور الزمن على هذه المواسير، تفسد ونجد بقع مياه في جدران مبنى العمارة.

يحدث هذا تمامًا عندما يحدث أي تأثير سيء من السكر على هذه الأوعية الدموية، فتبدأ جدرانها بالتأثر مما تؤدي إلى الارتشاحات والنزيف، وهذا يقابل بقع المياه الموجودة في جدران مبنى العمارة، عندئذ قالت المريضة بابتسامة خفيفة: لقد فهمت ما تقصد يا دكتور صحيح العلم نور.

الخلاصة أنه يمكن قراءة الجسد بمجرد إمعان النظر في عيون صاحبه، فالعيون ليست فقط مرآة للروح، ولكنها أيضا نافذة على الصحة العامة. والعيون قد لا يظهر بها فقط مشكلاتها من احمرار أو اصفرار أو انتفاخ أو غيرها من التغيرات التي قد تطرأ عليها فجأة، ولكنها تعكس الأمراض التي قد تصيب الإنسان كأمراض السكر والقلب والمخ، وغيرها من الأمراض الأخرى، كما يمكن للعيون أن تُظهر أعراضًا مختلفة لمشكلات مرضية؛ مثل فيروس نقص المناعة، والسرطان، وتمدد الأوعية الدموية.. ولعل لغة العيون التي تكشف عن حب العاشقين، قد تكون أيضا لغة طبية بامتياز تكشف عن خفايا الأمراض التي قد يتعرض لها الإنسان دون أن يشعر بها. وقد قيل: "إن العيون مغاريف القلوب، بها يعرف ما في القلوب وإن لم يتكلم صاحبها". ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

د. بركات محمد مراد*

الإبداع
بين الذكاء والعبقرية

عدّ بعض الباحثين الإبداعَ شكلاً من أشكال الذكاء العالي أو الذكاء في أعلى مستوياته، ولكنه يجاوز الذكاء. فإذا كان الذكاء هو القدرة على حل المشكلات، فإن الإبداع يتجاوز ذلك إلى شق دروب جديدة، وخلق عوامل مبتكرة متباينة للمألوف.

لذلك -وتمييزًا له عن الذكاء- يصطلح البعض على تسميته بـ"الذكاء المباعد" أو المخالف، بينما تسمى "مَلَكة الذكاء" بـ"الذكاء المقارب" الذي يعتمد على مواجهة المشكلات باستخدام حلول مألوفة، بينما يكون الإبداع أقل التزامًا بالمألوف، فهو لا يلتزم باستجابة واحدة وإنما باستجابات مفتوحة. وهو بذلك يتطلب نوعًا من التفكير المنطلق المتشعب الذي يبحث عن استجابات وحلول ليست مما تألفه أو تستدعيه أسئلة اختبارات الذكاء المعروفة. بهذا يكون الإبداع قفزة فوق الروابط المنطقية المتعارف عليها، لأنه يتجلى باستجابات جديدة، أو إنه على حد قول "أينشتاين": "لعبة المزج بين عناصر متباعدة، للوصول إلى عناصر وصيغ جديدة"[1].

ويعرف "شتاين" (Stein) الإبداع على أنه "عملية ينتج عنها عمل جديد يرضي جماعة أو تقبله على أنه مفيد"، إلا أن هذا التعريف يضع رضا الجماعة كجزء

من الإبداع، والإبداع هو في أغلب أحواله خروج عن النمط المألوف، والعقل الجمعي عقل نمطي يرهب التجديد ويرفضه، في حين يعرف "سيمبسون" (Simpson) الإبداع بأنه: "المبادرة التي يبديها الشخص بقدرته على الانشقاق من التسلسل العادي في التفكير إلى تفكير مخالف كلية". ويعرفه "كلوبفر" (Klopfer) بأنه: "استعداد الفرد لتكامل القيم والحوافز الأولية بداخل تنظيم الذات والقيم الشعورية، وكذلك تكامل الخبرة الداخلية مع الواقع الخارجي ومتطلباته"[٢].

إن الإبداع فاعلية إنسانية وخلق يتغيا تجاوز المعتاد وتخطي ما هو مألوف وسائد، بهدف إنتاج صور ورموز وأفكار مغايرة، واستشراف آفاق جديدة تبرهن على الملكة الخلاقة لدى الإنسان ككائن عملي يسعى دومًا إلى تغيير واقعه، وصياغة علاقات أكثر ملاءمة لطموحاته في الحرية والعدالة والتقدم. ولعل هذه الرغبة العارمة في الإبداع التي تتملك الإنسان منذ بداياته، هي التي كانت الحافز القوي وراء صنع أشكال الحضارة والتقدم التي عرفتها كل المجتمعات الإنسانية. وهي التي تحفز على مختلف أشكال التعبير لإنتاج ثقافة تعطي لعلاقات الناس فيما بينهم وبين واقعهم المادي والاجتماعي، تلك الأبعاد السامية والمثالية التي تجعل الحياة قابلة لأن تعاش.

اتجاهات الإبداع

الإبداع كتجسيد لجهد إنساني، إما أن يبقى متقوقعًا في الحدود الذاتية للفرد، وإما أن ينصهر في إيقاع جماعي يحفز مختلف القدرات الذاتية على تطويع الواقع وتحسين شروط العيش. وقد انقسم الباحثون في تناولهم للإبداع إلى اتجاهين أساسيين؛ الأول هو الاتجاه النفسي الفردي الذي يؤكد على أولوية الذات، وعلى المخزون الفردي في الإبداع، باعتباره تفجيرًا لرغبات وصور وأفكار لم يتمكن الفرد من التعبير الصريح المباشر عنها، فيجد في المجال الإبداعي متنفسًا ولحظة تعويضية يكثف فيها تلك الصور والأفكار والرغبات بشكل أكثر سموًّا وجمالاً.

أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الجماعي الذي يرى أن الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي، لا يمكن أن يبدع إلا داخل سياق اجتماعي يسمح له بتفجير قدراته

الإبداع فاعلية إنسانية وخلق يتغيا تجاوز المعتاد وتخطي ما هو مألوف وسائد، بهدف إنتاج صور ورموز وأفكار مغايرة، واستشراف آفاق جديدة تبرهن على الملكة الخلاقة لدى الإنسان ككائن عملي يسعى دومًا إلى تغيير واقعه.

الإبداعية، بل إن الإبداع ليس اجتماعيًّا فقط من حيث دوافعه وشروط إمكانه، بل هو اجتماعي في مضمونه وأدواته كذلك. فالإبداع من هذا المنظور، عملية ذات أبعاد اجتماعية تستمد مقوماتها من ثقافة الجماعة، وتسهم في نفس الوقت في تغيير الحساسية الجمالية والفنية للأفراد. ومهما يكن من شأن هذا التضارب في النظر إلى العملية الإبداعية، فإن ما هو موضع اتفاق هو أن الإبداع رهين بمجموعة من الشروط الذاتية والمجتمعية التي توفر إمكانات الظهور والتحقق في العملية الإبداعية. إذن، يتجلى تركيب خلاق بين الذاتي والموضوعي، بين ما هو موجود وما هو ممكن، بين الحاضر والمستقبل.. فالإبداع -بالتالي- جدل متوتر لا يتحقق إلا ضمن سياق صراعي بين قوى المحافظة والاجترار، أو قوى التجاوز والتقدم.

اهتمام عالمي بالمبدعين

لقد شهد النصف الأول من القرن العشرين، الاهتمام بالذكاء وتحليله وتعريفه ودراسته، أما النصف الثاني منه فقد تميز بالاهتمام بالإبداع والمبدعين. ولقد كان للاهتمام بالإبداع أسباب كثيرة، ذلك أن الحرب العالمية الثانية استدعت -في جملة ما استدعت- ما اتصل منها بالحرب، وكانت ذروة المخترعات "القنبلة الذرية" وما تلاها من أسلحة للدمار هائلة. ثم إن حلول السلام لم يكن سلامًا بالمعنى الصحيح للكلمة؛ حيث زج بالعالم في حمأة الحرب الباردة التي تطلبت جهودًا في مجال الاختراع والإبداع.. ومن هنا كان الطلب المتزايد على الأدمغة المخترعة التي لم يتوفر منها قط ما تحتاجه الأمم المشتركة في هذه الحروب الباردة والساخنة.

ثم بدأ عصر الفضاء، وتصاعد السباق بين أمريكا والاتحاد السوفيتي، وكانت الصواريخ وغزو الفضاء

hiragate.com

والأدمغة الإلكترونية وسواها، وكان من جراء ذلك الطلب المتزايد على الأدمغة المبدعة، وبالتالي الإلحاح على علماء النفس في الكشف عن هذه الأدمغة، وتحديد معنى الإبداع ومكوناته وطرائق تكوينه.. ومن ثم كانت مطالبة الأمم من مربيها ومدارسها بتهيئة أكبر عدد ممكن من المبدعين والمخترعين.. ولقد كان من أهم الطرائق التي اتُّبعت في دراسة الإبداع وعوامله وعلاقته بالذكاء؛ طريقة التحليل العاملي (Factor Analysis) على يد فريق من العلماء يرأسه العالم الشهير "جلفورد" وذلك في جامعة كليفورنيا الجنوبية.

لقد انطلقت هذه الدراسات، من التنكر للنظرية السائدة عن الذكاء وعن قابلية واحدة موحدة، كما تنكرت للاعتقاد بأن المواهب المبدعة أمور خارجة عن نطاق الذكاء، وبدأت بافتراض أن ثمة عدة قابليات ممكنة التميز يشتمل عليها الإبداع، وافترضت كذلك أن المواهب الإبداعية ليست وقفًا على عدد قليل من الأفراد المحظوظين، بل ربما كانت موزعة على جميع الناس وبدرجات متفاوتة، ولذلك فإن من الممكن البحث عنها، ليس عند الموهوبين وحدهم، وإنما عند الناس جميعًا[٣].

لقد افترض "جلفورد" عددًا من الفرضيات عن طبيعة التفكير الإبداعي، وكان في ذهنه نماذج من المبدعين من مثل العالم والتكنولوجي بما في ذلك المخترع، وهو يعتقد أن ثمة فروقًا في أنواع الإبداع في مختلف الميادين، وذلك بالرغم من اعتقاده بأن ثمة عوامل مشتركة بين كل المبدعين وأنماط قدراتهم. ويرى "جلفورد" أن أهم القدرات الأولية التي تسهم في الجهود الإبداعية هي:

١- الإحساس بالمشكلات: إن قسمًا كبيرًا من نجاح العالم، يتوقف على قدرته على طرح الأسئلة الصحيحة والمناسبة.

٢- الطلاقة (Fluency) في الموهبة الإبداعية: إن الشخص قادر على إنتاج عدد كبير من الأفكار في وحدة زمنية ما، فإذا تساوت الاعتبارات الأخرى يكون صاحب حظ أكبر في إبداع أفكار ذات معنى، وثمة ثلاثة عوامل متميزة للطلاقة، وهي الطلاقة الفكرية، والطلاقة الترابطية، والطلاقة التعبيرية.

٣- المرونة (Flexibility): إن مرونة نفس الفرد أو سهولة تغييره لتهيئة النفس، عامل هام من عوامل الإبداع، فالإنسان الذي يقف عند فكرة أو يتصلب بالنسبة لطريقة من الطرق، أقل قدرة على الإبداع من إنسان مرن التفكير، قادر على التغيير حتى يكون لازمًا، ويميز "جلفورد" أنواعًا من المرونة، مثل المرونة العفوية، والمرونة التكيفية وسواهما.

٤- التجديد: يملك الإنسان المبدع أفكارًا جديدة متجددة، ودرجة التجديد التي يكون الإنسان قادرًا عليها أو التي يظهرها في المعتاد، هي في الإبداع، ويمكن اختبار هذه القدرة، بتكرار ما هو غير شائع ولكنه مقبول من الاستجابات.

٥- التوسع (Elaboration): في واحد من الاختبارات أعطي الممتحن مخططًا بسيطًا لموضوع ما، وطولب بتوسيعه ورسم خطواته التي تؤدي إلى كونه عمليًّا، وبطبيعة الحال فإن الدرجة التي كان يحصل عليها الممتحن، كانت تتناسب مع مقدار التفصيلات التي كان يعطيها.

وهناك قدرات أخرى تم الكشف عنها أيضًا عند المبدعين، مثل القدرة التركيبية والقدرة التحليلية، وإعادة التنظيم، والتعقيد، والتقويم. وباختصار فإن "جلفورد" يعتقد أن القدرات الأكثر أهمية في تفكير المبدع تقع في زمرتين: زمرة القدرات ذات النتائج المفرقة (Divergent production Abilities)، وزمرة القدرات التحويلية (Trans Formation Abilities) ويسميها أحيانًا قدرات النتائج المجمعة، ويميل لاعتبار التقويم زمرة خاصة ثالثة.

الإبداع والعبقرية

المبدعون الذين قدموا إسهامات خالدة للثقافة الإنسانية، سواء أكانوا علماء أو فلاسفة أو كتّابًا أو مؤلفين موسيقيين أو فنانين، هم من يقومون بصياغة الحضارة الإنسانية، ويعملون على تقدمها ورقيها، من أمثال أينشتاين، وجويس، وسترافنسكي، وابن النفيس، وابن الهيثم، والبيروني، والرازي، وابن سينا، وكبلر، وجاليليو، وبيكاسو.. وقد تركوا تأثيرًا دائمًا على أفكار وأحاسيس عدد لا حصر لهم من الرجال والنساء.

إن هؤلاء الأفراد البارزين من المبدعين يشتركون

hiragate.com

hiragate.com

في امتلاكهم لخاصية العبقرية، وقد أدرك هذا منذ وقت مبكر "فرانسيس غالتن" في كتابه المعروف "العبقرية الوراثية" (Hereditary Genius) عام ١٨٦٩م، وهو الكتاب الذي حاول فيه "غالتن" أن يضع أساسًا وراثيًا للإنجاز المتميز. وطريقة التعرف على العبقرية، بالتمعن في تلك الإنجازات التي كان لها تأثير نادر الحدوث على الأجيال المعاصرة والتالية لها، ولا بد -في الغالب- أن يكتسب الشخص الشهرة من خلال تقديم هذه العبقرية، لإسهامات تبقى على الزمن في نواحي النشاطات الثقافية والسياسية، أي إن العبقرية تُعرف بالإنجاز. فالمبدعون قادة ثقافيون، وقد كان لأفكار أينشتاين النظرية، تأثيرها البالغ على زملائه من علماء الطبيعة، وعلى المجتمع العلمي بشكل عام. كذلك كان تأثير "بيتهوفن" على الموسيقى، و"ميكل أنجلو" على النحت، و"شكسبير" على الدراما.. كبيرًا في زمانهم، وفي زمان الأجيال اللاحقة لهم.

ورغم أن مصطلح العبقرية (Genius) كثيرًا ما يستخدم باعتباره مرادفًا لمصطلح الموهبة (Giftedness)، إلا أن العبقرية تتضمن دلالات ومعانٍ خاصة بالندرة الاستثنائية، وكذلك الإنجاز العقلي المبكر، أما الموهبة، خاصة عندما تستخدم في سياقات أكاديمية ودراسية، فإن تحديدها لا يكون بنفس الصرامة. ومن ثم لا بد من التمييز بين الموهبة والإبداع، باعتبار أن الموهبة تتعلق بنشاطات الأطفال، والإبداع يتعلق بنشاطات الكبار، ومن ثم لا تقتصر صفة الإنجاز العقلي المبكر على مفهوم العبقرية فقط، بل تمتد لتشمل مفهوم الموهبة أيضًا.

ومن شبه المؤكد، أنه ليس هناك علاقة اضطرادية بين النجاح الدراسي وظهور العبقرية أو الوصول إلى مراحل الإبداع العليا، ووفقًا لما قاله واحد من أبرز الأساتذة في معهد "زيورخ للبوليتكنيك" (معهد العلوم التطبيقية أو الفنية) وهو "هرمان ميتكوفسكي": "فقد كان أينشتاين خلال سنوات تلمذته كائنًا كسولاً، ولم يكن يهتم بالرياضيات أبدًا".

وقد كان ما لا يقل عن نصف الأشخاص المشهورين الذين قام "آل غورتسل" بدراستهم، من القراء النهمين منذ وقت مبكر، واستمر حبهم للقراءة خلال سنوات رشدهم[٤]. وقد أظهرت الدراسات حول المراهقين المبدعين، أنهم يميلون إلى أن يقرأوا أكثر من خمسين كتابًا كل سنة، هذه العلاقة لا تدعو إلى الدهشة، فالبحوث حول الشخصية المبدعة غالبًا ما تشير إلى أهمية الاهتمامات العريضة، وسعة الأفق، وإلى الحاجة إلى الجدة والتنوع والتركيب.

إن الإبداع الآن صار عملاً مؤسساتيًا، بعد أن تأسست كثير من المراكز العلمية والبحثية في جميع أنحاء العالم، خاصة في الدول المتقدمة، وتسود الآن الخطط الإستراتيجية والمستقبلية لإنجاز الأبحاث العلمية التي تمول من قبل المجتمعات المتقدمة في ظل مشاريع بحثية بالغة الخطورة، مثل تلك التي تم إنجازها فيما يخص المكونات الوراثية للخلية، أو فك شفرة الجينات البشرية والتي استغرقت أكثر من خمسة عشر عامًا بفضل تضافر الجهود العلمية من آلاف العلماء في مختلف أنحاء العالم. وسوف يساعد هذا المشروع في معرفة وعلاج عشرات من الأمراض المستعصية في المستقبل القريب، وهذا أحدث ثورة علمية بيولوجية في مجال الهندسة الوراثية وعلوم البيولوجيا والطب، وما كان لهذا أن يتحقق لو ترك لاجتهاد بعض الأفراد. ونعتقد أن البشرية بفضل هذه الجهود الجماعية، سوف تصل إلى علاج كثير من الأمراض الخطيرة والمستعصية في السنوات الأخيرة، مثل كثير من أنواع السرطان، وكذلك مرض الإيدز. ■

(*) كاتب وباحث أكاديمي/ مصر.

المراجع

(١) من محاضرة د. عبد الله عبد الدايم في المؤتمر الثاني لتطوير التعليم ما قبل الجامعي، دمشق عام ١٩٨٦. وانظر: الحاجة إلى الإبداع في العصر التكنولوجي، إسماعيل الملحم، الوحدة العدد:٥٥، ص:٦٨، بيروت، إبريل عام ١٩٨٩م.

(٢) أساطير في الفن والحب والجمال، أمير الصرفي، ص:١٣، نشر جماعة الفن والمجتمع، مصر ١٩٩١م.

(٣) الإبداع، د. فاخر عاقل، مجلة العربي، العدد:١٨٤، الكويت، مارس ١٩٧٤م.

(٤) روبرت أوبنايمر (١٩٠٤-١٩٦٧)، عالم أمريكي اشتهر بسبب إسهاماته الكثيرة في مجال نظرية الكم، وبسبب تطويره للقنبلة الذرية أيضًا.

hiragate.com

أدب

حسين شعبان وهدان*

بشارة الغراب

١

البشرى في قلوب أهل الخير رجاء صادق، ونفحة روحية أخاذة إلى معان تروق للأرواح وتتطلع إليها النفوس، وتغير المزاج المكدود إلى مزاج يكاد يزهر بالخيرات والمسرَّات، بل إنها من أنواع العلاج لحالات قد تردَّت في مهاوي المضايق والمحن.

فقد استبشر الدَّلاَّء إثر رؤية يوسف عليه السلام وجماله الأخاذ وهو صغير في البئر، فقال: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(يوسف:١٩). ويصف القرآن

الكريم حامل القميص إلى وجه يعقوب عليه السلام بأنه من أهل البشرى، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾(يوسف:٩٦)، وبهذا أمر نبينا الكريم ﷺ فقال: "يَسِّروا ولا تُعسِّروا وبشِّروا ولا تُنفِّروا"(رواه البخاري).

فالبشرى التي تبعثُ المسرَّة في النفوس، نفحة عطاء لسامعها بيانًا عن حسن حاله وسمو مكانته بين الناس بجميل عمله، فما عليهم إلا أن يذيعوها، وما عليه من بأسٍ أن يُسر بها خاطره، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمدُه الناسُ عليه؟ قال: "تلك عاجلُ بُشرى المؤمن" (رواه مسلم)، فهذه هي البشرى وهذا بعض جمالها.

وقد كان العرب -ولا يزالون- يستبشرون بأسباب البهجة في حنايا النفوس، ويتشاءمون بأشياء ومخلوقاتٍ لا تسرُّ الخواطر ومنها الغراب رمز التشاؤم المشهور، وربما يكون السبب في ذلك هو سواد ريشه الداكن الذي يملأ الصدر انقباضًا، ويفقد الإحساس بأي معنى مقبولٍ فضلاً عن أن يحتوي روعة أو جمالاً، بيد أن ذلك من فضل الله على الغربان في خلقتها. فمن أسرار اللون الداكن أنها تتوارى به في جنح الليل من افتراس البوم والصقور وجوارح الطير.

وربما يكون السبب أنهم درجوا على هذه الثقافة الموغلة في نبذ الغربان وتطيرهم بها، لما لها من نعوت تنسب إلى الخسة والتحقير؛ فقد ذكر الجاحظ

أن "الغراب من لئام الطير وليس من كرامها، ومن بغاتها وليس من أحرارها، ومن ذوات البراثن الضعيفة والأظفار الكليلة وليس من ذوات المخالب المعقوفة والأظفار الجارحة، ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر، ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها"[1]، ولهذا كان من موروثاتنا الثقافية في هذا الباب:

إذا كان الغراب دليل قوم

يجرّ بهم على جيف الكلاب

ومن نعوته عند العرب أيضًا أنه يسمى بـ"الفاسق"، لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء فوجد في طريقه رمَّة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه. ويسمى بـ"البين" لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم. ومن الغريب أن بين الغراب والثعلب ألفة، وذلك أنه إذا رأى الثعلب بقر بطن شاة، سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره[2]. ومن أمثال العرب: لا يرجع فلان حتى يرجع غراب نوح. ومن تشاؤم العرب بالغربان؛ أن اللسان العربي يعبر عنها في باب التمثيل لحدوث المستحيل، كما قال القائل:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي

وصار القار كاللبن الحليب

ومن أجل تشاؤم العرب بالغراب، فقد اشتقوا من اسمه معاني الغربة والاغتراب والغريب، وتواصوا فيما بينهم أن لا شيء مما يتشاءمون منه إلا والغراب عندهم أنكد منه.

ومع ما سبق من سيء الخصال للغراب، فإن العبرة المرجوة من البيان، أن لا يتشاءم الناس من أحدٍ أو مخلوقٍ تشاؤمًا كاملاً يسدُّ عليه باب الإنصاف، فلربما يحمل للبشارة ذات يوم. كما يتفاءل العرب بصيحة الغراب إذا صاح مرتين، وربما في لحظة فارقة قد يحذِّر من ضر أو يلهم أو يدلُ على منفعة. وكذلك الأشخاص فلا ننسى -ونحن نتعامل معهم- أن لا نحمل أحدًا بذنبٍ ليس فيه، ولا نصيخ السمع للكلام المرسل في أحدٍ ما لم تظهر له على العيان أمارات صدقٍ مسفرة على أحداق العيون.

ولا شك أن مُلاحظة الغربان -بعين الحقيقة- تظهر فرائد من الفوائد المستكنّة درج الحياة الخاصة لعالمهم تعدُّ في باب البشارات لا في باب التشاؤم، ولا يرفضها الطبعُ السليم رغم نظرات التغاضب المتوهمة والموروثة بين الأجيال في الأذهان، فقد يخرجُ اللؤلؤ من الماء الأجاج. ومن هذه الفوائد بلا ترتيب أن الغراب كان دليل ستر لمن مات من أبناء آدم عليه السلام؛ بتعليم الدفن والإقبار للذي قتل أخاه، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ (المائدة:٣١)، وذكر الطبري رحمه الله في تفسير ذلك عن الضحاك قوله: "بعث الله غرابًا حيًّا إلى غراب ميّت، فجعل الغراب الحيُّ يواري سوأة الغراب الميت، فقال ابن آدم الذي قتل أخاه: "يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب"[3].

ومن مواقف الغربان النافعة مع النبي الكريم ﷺ ما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا بخفَّين فلبس أحدَهما، ثم جاء غراب فاحتمل الآخر فرمى به فخرجت منه حيَّة، فقال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبسْ خفَّيه حتى ينفُضَهما"[4].

وفي معرض البشارة بالأعصم من الغربان الذي

hiragate.com

جعله النبي الكريم ﷺ مثلاً لأهل الجنة من النساء وإن قل عددُهن، فعن عمرو بن العاص ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمرّ الظهران فإذا بغربان كثيرة، فيها غراب أعصم أحمر المنقار، فقال ﷺ: "لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغِربان"[٥]؛ ففي الغراب بشارة بالجنة وإن قلّ العدد. ومن بشارة الغراب الأعصم أيضًا ما ورد عن هاتف عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ الذي جاءه منامًا قائلاً له: "احفر زمزم لا تنزف أبدًا ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم"[٦]، فصار الغراب دالاً على زمزم المباركة بمنقاره، وقد ثبتت له بعض البشرى ولو في المنام.

ومن جماليات حياة الغربان، أن الحب يسود أعشاشها في حياة جماعية أشبه بالقبيلة، أو المجتمع المتناسق الذي يطلق عليه علماء الطير "المجثم"، ولديها نظم اجتماعية محكمة لا يتخطاها أفرادها، فليس لذكَر الغراب أن يعدِّد من الإناث إلا في الحالات الاستثنائية؛ كموت أليفته أو تكسير بيض وكْره، وتُحاكِم الذي ندَّ عن قوانينهم بالإبعاد والطرد، وتقوم بدفن موتاها، ولها أصوات تفهمها فيما بينها تدلُّ على المطالب والرغائب من الإنذار والنجدة أو حتى مجرد التنبيه.

فضلاً عن أن الغراب صديق الزارعين بالتقاط الحشرات والآفات الضارة من بطن الأرض شأن الهدهد وأبي قردان.

ومن جماليات الغراب أنه حاد البصر، ولذلك حينما يوصف أحد بحدة البصر يقال: "أصفى من عين الغراب". وقد أثبتت الملاحظات الحديثة ذكاء الغربان وتفوقها على كثير من أنواع الطيور الأخرى في الفهم والاستجابة للتعلم.. والغريب أنها تجتذب للأشياء المذهبة والبراقة فتجمعها مع قطع الصابون الملوّن لاكتساب الجمال في أوكارها.

وتلك نعوت إذا جُمعت على بعضها ألقت بوشاح التميز في أحايين كثيرة لنوعٍ من الطير توسم فيه الكثير رمزًا للتشاؤم على المعنى المطلق، تمامًا كما نتشاءم من بعض البشر الذين لا ذنب لهم في باب التطير منهم إلا الحسد أو البغضاء، وربما أن بشراهم عند ربهم أنهم من أهل الإيمان في الدنيا والنعيم في الآخرة.

إن أصحاب العقول المنصفة ينظرون إلى الأشخاص بعين مقسطة لا شطط فيها ولا أطماع؛ لأن العدل إسعاف من عيون السخط التي استشرت وعمت وطمت بين الناس، ولا ينظرون بعين بعيرٍ فإن عين البعير حقودة والحقد لا يبنى مجدًا.

ويا ويل من كانت عينه متجافية على الدوام من طلبة الحق وقتما يكون الحب كلفًا والبغضُ تلفًا كما قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلةٌ

ولكن عين السخط تبدي المساويا

والعاقل من يبحث عن مراسيم العدل قدر طاقته في التعامل أو الحكم على المخلوقات والأشخاص. فما خلق الله تعالى شيئًا فيه ضرر كامل ولا نفع مطلق. وأصحاب النفوس المستقيمة هم المعنيون فقط باستشعار الثواب والأجر قادمًا في قلب البلوى كما يستشعرون البشارة من الغراب، كما توافيهم من المقربين والأحباب. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

الهوامش

(١) الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، ص:٣١٤، جـ٢، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة ٢٠٠٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) المستطرف في كل فنٍ مستظرف، شهاب الدين محمد الإبشيهي، ص:٥٩٤، ط١، ٢٠١٤م، دار ابن الجوزي، القاهرة.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الإمام محمد بن جرير الطبري، ص:٢٢٧، جـ٥، تحقيق: أحمد محمود شاكر، ط١ ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

(٤) فتح الغفار، القاضي الرباعي، ٢٦٧/١، وقال: إسناده لا بأس به.

(٥) كشف الخفا ومزيل الإلباس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، ٤٠٦/٢.

(٦) البداية والنهاية، الإمام ابن كثير، نسخة مدمجة على موقع ويكي مصدر، جـ٢، تجديد حفر زمزم.

hiragate.com

الزبير مهداد*

المسجد
ودوره في النسيج الحضاري

منذ بناء النبي ﷺ مسجده بالمدينة المنورة، صارت للمساجد مكانة مركزية في الحياة الفكرية والمجتمعية للمسلمين. ومن ثم أضحى المسجد مؤسسة دينية وعلمية بالدرجة الأولى؛ تقام فيه الشعائر الدينية، كالصلوات الخمس، وتلاوة القرآن، وإلقاء الدروس في الفقه والتفسير والحديث.. بل تعدّى ذلك إلى أن يكون مؤسسة اجتماعية واقتصادية وثقافية وقضائية وتعليمية ومعمارية.

دور المسجد في النسيج الحضري

ومن اليسير لزائر المدن العتيقة أن يلاحظ أن المساجد الجامعة تتموقع في مركز المدينة وكأنه قلبها النابض، وهو الأمر الذي وثقه المؤرخون؛ ففي تأريخهم للحواضر الإسلامية الشهيرة -مثل الكوفة أو القيروان أو غيرهما- ذكروا أن المساجد الجامعة هي أول ما رُسم في تخطيطها، فعند وضع خطط الكوفة، كان أول ما عزم عليه المسلمون تحديد موقع المسجد الجامع، وتم اختطاطه بطريقة ذكية، إذ قام رجلٌ في وسطه رامٍ شديد النزع

(أي قويه)، فرمى عن يمينه وعن يساره وبين يديه ومن خلفه، وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السهام، وترك المسجد في مربّعة غلوتين في غلوتين، وبنى في مقدمته ظلّة من مائتي ذراع على أساطين من رخام.

والقصور -وهي مدن صحراوية منتشرة في بلاد المغرب الكبير- تعدّ من أقدم المراكز الحضرية العتيقة، وما زالت محافظة على شكلها القديم، وهي ألطف مثال على مركزية المسجد في النسيج العمراني الإسلامي. ففي أعالي كل قصر يأخذ المسجد موقع القلب، وحوله تلتفّ المنازل وسائر البناءات والمرافق، تربط بينها الأزقة والممرات.

في "قصر تاجنينت" بالجزائر، يقع المسجد في أعلى الربوة، معلنًا مكانته المحورية في الحياة الميزابية، ودوره القيادي ووظيفته الحمائية. من يزور مدينة غرداية وأخواتها الستّ، سيلفت انتباهه ذلك التكوين الهرمي الذي يشكله انتصاب المئذنة التي يقف فوق قمة الربوة، فيما يتربع المسجد كالحارس الأمين، وحوله المنازل تنداح دوائر متماسكة تحت سمع وبصر المئذنة.

صمم المسجد ليكون حصنًا، وآخر معقلاً للمقاومة في حالة الحصار، ويضم ترسانة ومخزنًا للحبوب، فهو يشكل النواة المركزية والروحية للقصر. ووظائفه متعددة؛ فهو مكان لأداء العبادات، ومؤسسة علمية، وفضاء لعقد الاجتماعات، ومخزن المؤن، ومركز دفاعي، وملجأ المظلومين لطلب الإنصاف.. لذلك يقام في المدن الميزابية في مكان محصن يصعب الوصول إليه.

تتميز المساجد الميزابية بمآذنها، وتشكل إلى جانب الأبراج نظامًا دفاعيًا محكمًا. ويتخذها الميزابيون رمزًا لهم؛ مآذنها هرمية الشكل ذات قاعدة مربعة، فمئذنة تغرداية علوها ٢٢ مترًا، وعرض

قصر تاجنينت في الجزائر

قاعدتها ٦ أمتار، وعرض أعلاها متران، وسمك جدرانها يتناقص من متر واحد إلى ٣٠ سم. بجانب المسجد تقع الميضأة ومحاضر تعليم الصبيان، وفوقه المخازن والسطح ومقر اجتماعات العزابة الذي يسمى تامنايت.

الدور الاجتماعي الأمني

اختار المسلمون أن يكون المسجد في قلب المدينة، لأنه يمثل موئلهم الروحي وعقلهم الفعال، خاصة وأن مهامه لا تقتصر على إقامة الصلاة وأداء العبادات، بل تمتد إلى المهام الاجتماعية، لهذا كان انضواؤهم تحت لوائه فيه رمزية الاعتراف بمرجعيته التامة ودوره الواسع الذي ليس له مثيل في أي مكان آخر. فالمسجد في الحقيقة خط الدفاع العسكري والاجتماعي.

في ميزاب بالجزائر، يعتبر المسجد -في العادة- المركز الذي تباشر من خلاله العزابة مهامها التي تمتد إلى مختلف شؤون الحياة وحقولها، وهيئة العزابة ورئيسها الإمام؛ هيئة يختارها السكان للنيابة عنهم وتمثيلهم، وتوكل لها مهام وصلاحيات كثيرة، منها تدبير الحرب ووسائل الدفاع، وعقد المعاهدات والأحلاف. وفي المسجد تعقد جلسات الإشراف على المنافع العامة لمياه السدود التقليدية.

كما يؤدي أئمة المساجد، ومجالس العزابة، دورًا مهمًّا في الإصلاح بين المصلين والتوسط فيما بينهم، وحل المشكلات وفض المنازعات بينهم، ليصبح المجتمع متحابًّا يسوده الحب والإخاء والأمن والاطمئنان.

ولما كان الأمن والأمان هو الركيزة الأساسية لقيام المجتمعات الإسلامية، كانت المساجد هي صمام الأمان فيها. وجرى العرف في المجتمع الإسلامي، أن المسلم الذي يشعر بأن هناك ظلمًا واقعًا عليه، يذهب إلى المسجد ليمنع المصلين من الصلاة قبل أن يأخذوا له حقه أو يتعهدوا بذلك، إيمانًا بأن المسجد يقوم بدور رئيس في تحقيق الأمن في المجتمع، وظل هذا العرف قائمًا في عدة قبائل ببلاد المغرب الكبير إلى عهود متأخرة.

فإقامة الصلاة ليست مجرد طقس تعبدي، بل هي أداة نشر الفضيلة بين المصلين، والتعاون والتراحم والترابط بينهم، وتحقيق التكافل الاجتماعي في أحسن صورة.

ولكن ماذا يحدث لمن يخالف تعاليم مجلس العزابة؟ يقف إمام المجلس أمام المصلين، ويعلن التبرؤ على رؤوس الإشهاد، ممن يخالف التعاليم الدينية أو يقترف جرمًا في حق غيره. فيتبرأ منه سائر الناس، فلا يجالس ولا يشارك في فرح أو في مأتم، ولا يُقبل البيع والشراء منه. فالدين الإسلامي الحنيف هو دين انضباط في المقام

المآذن الميزابية بالجزائر

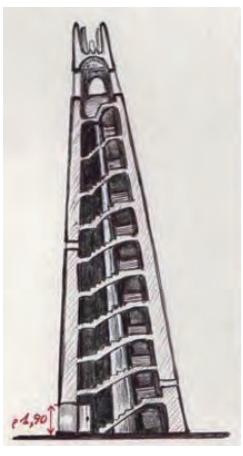

hiragate.com

الأول، وجميع العبادات تشترط انضباط العابد وتنمي فيه هذا السلوك، والصلاة تقوم على الاصطفاف الدقيق في صفوف، واتباع الإمام والاقتداء به. لذلك كان المسجد من أبرز الميادين لتربية المسلم على الانضباط. ويصبح هذا الانضباط الذي يتعلمه المسلم في المسجد، ديدن الحياة والسلوك في كافة تعاملاته، فيتحقق الأمن، والأمن الاجتماعي هو الصورة الحقيقية التي تعكس انضباط الناس.

الدور العلمي الثقافي

المسجد هو بيت الله المفتوح لعباد الله، لم يكن مكانًا للصلاة فحسب، بل احتضن أولى حلقات العلم والتعلم ومجالس المذاكرة والوعظ؛ وكان الرسول ﷺ رائد التعليم الإسلامي، إذ جعل من مسجده مجلسًا للقضاء ومدرسة للتعليم، فكان إذا صلّى الصبح انصرف إلى إحدى أسطوانات المسجد واجتمع حوله بعض صحابته، فيتلو عليهم ما نزل عليه من الوحي ويحدثهم ويحدثونه.

بعد الرسول ﷺ توبعت المسيرة العلمية في المساجد، فأصبحت مؤسسات لتعليم الفقه واللغة. ومع ازدهار الحركة العلمية والثقافية في العصر الأموي والعباسي، تعددت وتنوعت حلقات الدرس في المساجد تبعًا لها، حتى أصبحت تضم في جنباتها حلقات للجدل وأخرى للشعر. ولعل هذه الحركة العلمية كانت تفتر أحيانًا وتضعف، لكنها كانت تجد دومًا من يبعثها من رقادها ويجدد نشاطها. ومن هذا ما نقله ابن عساكر في تاريخه من أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ وجه إلى عماله في الأمصار كتابًا قال فيه:أما بعد، فامروا أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت.

ولقد فضل الفقهاء دومًا التعلم في المساجد على سواها من المؤسسات، وقد نظم الشاعر الزبيدي عمر بن عاصم في المفاضلة بين المسجد والمدرسة أبياتًا لطيفة قال فيها:

بيع المدارس لو علمت بدارس
غال وأخسر صفقة للمشتري
دعها ولازم المساجد دائمًا
إن شئت تظفر بالثواب الأوفر

وفي المفاضلة بين المسجد والمدرسة يرى ابن الحاج أن المسجد أفضل؛ لأن السلف كانوا يعلِّمون ويتعلمون في المساجد دون غيرها. وإن لم يخلُ التعليم في المدرسة من الخير والمنفعة والبركة، إلا أن ابن الحاج يفضل التعليم في المسجد، لأن الجلوس للتدريس فائدته أن تظهر به سنة، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوفرًا، لأنه موضع اجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم وجاهلهم.

والتعليم في المسجد يحقق تعميم المعرفة ومجانيتها، ويضمن استفادة وتمتع جميع الناس -على اختلاف طبقاتهم وانتماءاتهم الاجتماعية- بحقهم في التعلم.

إن ربط المساجد بالمجتمعات أمر مهم وثمين، وانفتاحها على الناس وحياتهم وقضاياهم من أثمن ما يسعى إليه المسلمون. فالمجتمعات الإسلامية تعاني الجهل، وهو السبب الرئيس في كثير من المعضلات الاجتماعية.. لهذا بادرت الجوامع العصرية الكبرى إلى إحداث المكتبات ومراكز المعلومات المفتوحة لعموم الناس -بغض النظر عن دينهم أو التزامهم الشعائري- وقاعات للتعليم ومحاربة الأمية، وأخرى للمحاضرات.. تستقبل العلماء من كل الديانات، وكافة التخصصات العلمية الدقيقة والإنسانية، والقانونية والاقتصادية وغيرها، وعقد لقاءات لهم بالناس. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

وادي ميزاب بالجزائر

hiragate.com

د. عبد القدوس أنحاس*

نظرية التطور بين يدي
دليل الاختراع عند النورسي

لم يذكر النورسي رحمه الله اسم "النظرية التطورية" أو اسم صاحبها "دارون"، لكنه أفرد لها نظرات عميقة في رسائله تدل على وعيه الراسخ بمقاصدها ومآلاتها، وهذا الوعي دفعه إلى أن يختزل أصول "الداروينية" في القضايا التالية:

ثبات النوع

تأثرت الفلسفة الغربية المعاصرة بمبدأ "قدم العالم" المنحدر إلى التراث اليوناني القديم، فجميع المدارس الفكرية الغربية جاءت لتؤسس نظرياتها على هذا المنحى، وتعتبر نظرية "التطور الداروينية" إحدى أكبر الاتجاهات التي تأثرت كثيرًا بهذا الافتراض. ذلك أن القول بقدم العالم، يعني بالأساس عدم فنائه مستقبلاً، ويعني كذلك أن ما نراه في عالم الكائنات والأشياء من حولنا، هو تراكم الخبرة الكونية أو حركة الطبيعة باتجاه البقاء، فليس ثمة أصول للكائنات وإنما هناك تطور وصيرورة، وليس ثمة فضل لكائن على آخر إلا بقدرته على الاستمرار والبقاء.

هكذا جاءت "الداروينية" لتعيد تعريف "الماهية الإنسانية" على ضوء أصولها الحيوانية، ولتشكك في مركزية الإنسان في الكون، باعتبار أن حركيته البيولوجية -كما استخدمت قبله وسائط حيوانية- ساعدت على

اكتمال صورته الحالية، فهو في هيأته الآن لا يعدو حلقة وصل لما هو آت من نسخ أخرى.

كان النورسي رحمه الله يدرك أن "التطورية" لضعفها ووهنها المعرفي، لم تكن تملك سوى هذا الافتراض لتؤسس عليه نظريتها، لذلك وضع رحال الاستدلال على رقعة "الماهية الكاملة للكائن"، وهي الماهية التي لا تحتاج بعد كمالها إلى مزيد تكميل أو تطوير، وإن كان ثمة تغيير أو تطور ظاهري فمرده إلى "الخصائص الجزئية" المتعلقة بكل كائن، وهي خصائص عرضية لا جوهرية، جزئية لا أصلية؛ فلا يمكن وصف وفرة الشعر أو الوبر بالنسبة إلى حيوان يعيش في رقعة باردة، وقلة ذلك عند حيوان يعيش في موطن دافئ أو حار.. أو طول المخلب عند ذئب إفريقيا وخفته عند نظيره في سيبريا، وغير ذلك بأنها نزعات تطورية لدى هذه الكائنات. فلا يرضى عاقل أن يجعل من تأثير عوامل المناخ والجغرافيا على أشكال الكائنات وألوانها وقدرتها على التحمل، سببًا جذريا لتطور أجناسها.

ذلك أن الله تعالى قد أعطى كل فرد وكل نوع وجودًا خاصًّا كما يقول النورسي: "هو منشأ آثاره المخصوصة، ومنبع كمالاته اللائقة. فلا نوع يتسلسل إلى الأزل لأنه من الممكنات، فضلاً عن أن حدوث قسم منها مشاهد،

التطورية تعبير واقعي عن حالة الغفلة الشاملة التي أصابت إنسان العصر الراهن، إذ لم يسبق أن صادقت الإنسانية -على اختلاف مشاربها ونحلها وأديانها- على أن تتنازل عن حقها في "الجوهر الإنساني".

حراء

وقسم آخر يراه العقل بنظر الحكمة أن انقلاب الحقائق محال، وسلسلة النوع المتوسط لا تدوم، أما تحول الأصناف فهو غير انقلاب الحقائق".

نعم قد تؤثر الطبيعة بجمالها أو بشدتها وشراستها على طبيعة الكائنات، لكن هذا التأثير لا يطال بنية الكائن الأصلية، ولا يمس جذره القديم، ذلك الجذر الذي يعود بالأصالة إلى "الجدّ الأكبر".

ولما كان لكل نوع جَدّ أكبر -كما يقول النورسي- فالوهم الباطل الناشئ من التناسل في سلسلة كل نوع، لا يسري إلى أولئك الآدميين والأجداد الأوائل؛ إذ الفلسفة وعلم الجيولوجيا وعلم الحيوان والنبات، يشهد أن الأنواع التي يزيد عددها على مئتي ألف نوع، كل منها له مبدأ وأصل معين وجدّ أكبر، بمثابة آدم لذلك النوع، وكل مبدأ منها قد حدث حدوثًا مستقلاً عن غيره، وكل فرد من هذه الأنواع الوفيرة، كأنه ماكينة بديعة عجيبة تبهر الأفهام. فلا يمكن أن تكون القوانين الموهومة الاعتبارية، والأسباب الطبيعية العمياء الجاهلة موجدة لهذه السلاسل العجيبة من الأفراد والأنواع، بل هي عاجزة عجزًا مطلقًا عن إيجادها؛ أي إن كل فرد وكل نوع، يعلن بذاته أنه صادر صدورًا مستقلاً عن يد القدرة الإلهية الحكيمة. نعم، إن الصانع الجليل قد ختم في جبهة كل شيء ختمَ الحدوث والإمكان.

الصدفة والعشوائية

جاءت نظرية "الصدفة الطبيعية" نتيجة طبيعية لفكرة "قدم المادة" و"التسلسل الطبيعي"، أي إننا بإزاء موقف غير علمي يؤصل للعدمية وموت الدين. هكذا قدمت "التطورية" أرضية خصبة لكل فلسفات "الإلحاد" و"المادية" و"الوضعية"، وبدا من خلالها أن العالم كان وما زال وسيبقى هائمًا على وجهه بدون غاية، تحكمه العشوائية

والصدف والطفرات وحوادث الدهر وريب المنون.

هكذا يؤكد النورسي أن "إعطاء احتمال تشكل الأنواع من أزلية المادة وحركة الذرات العشوائية وغيرها من الأمور الباطلة، إنما هو لمجرد إقناع النفس بشيء آخر غير الإيمان بالله، ولا ينشأ هذا الاحتمال إلا من عدم الإدراك، ومن فساد الفكر، بالنظر السطحي العابر. ولكن ما إن قصدَ الإنسان وتوجّه بالذات إلى إقناع نفسه، فلا بد أنه سيقف على محالية الفكرة وبُعدها عن المنطق والعقل، ولو اعتقدها، فلا يعتقد إلا اضطرارًا بالتغافل عن الخالق سبحانه".

"التطورية" نظرية تنفي عن الإنسان كرامته، ذلك "أن الإنسان المكرم من حيث جوهر إنسانيته، يبحث دومًا عن الحق، ويتحرى الحقيقة دائمًا، وينشد السعادة على الدوام، ولكن أثناء بحثه عن الحق يعثر على الباطل والضلال دون أن يشعر، وأثناء تنقيبه عن الحقيقة يقع الباطل على رأسه بلا اختيار منه؛ أي كلما خاب في الحصول على الحق ويئس من وجدان الحقيقة، قَبِل مضطرًا أمرًا محالاً وغير معقول، يقبله بالنظر السطحي والتبعي، مع أنه يعرف يقينًا بفطرته الأصلية ووجدانه وفكره أنه محال".

التطورية أو الغفلة الشاملة

التطورية تعبير واقعي عن حالة الغفلة الشاملة التي أصابت إنسان العصر الراهن، إذ لم يسبق أن صادقت الإنسانية -على اختلاف مشاربها ونحلها وأديانها- على أن تتنازل عن حقها في "الجوهر الإنساني". حقًّا إن هذا شيء عجاب -كما يقول النورسي- حتى إن الإنسان يندم على إنسانيته كلما فكر في هؤلاء الذين يحيلون هذه المصنوعات البديعة إلى المصادفة العمياء وحركة الذرات، ويستغربون صدورها عن الصانع الجليل المتصف بجميع الصفات الكمالية. نعم، إن شأن الباطل هو أنه إذا نظر إليه الإنسان نظر التبعي العابر، يعطى له صحة الاحتمال، بينما إذا أمعن النظر فيه يُرفع ذلك الاحتمال ويدفع.

تُناقض حالة الغفلة حقيقة التذكر الفطري، فالأولى تعبير عن تراجع كلّي لمرجعية الغيب والروح، بينما تفتح الثانية آفاق استرجاع نبض الحياة الحقة، الحياة القادرة على التمييز بين الحقائق الكونية بنور فطرة التوحيد، لذلك يقول النورسي رحمه الله مستغربًا:

"إن ما يسمونه بالمادة، لا تتجرد عن الصورة المتغيرة ولا عن الحركة الحادثة الزائلة، أي إن حدوثها محقق. فيا ترى إن من يضيق عقله عن إدراك أزلية الله سبحانه وهي صفة لازمة ضرورية للذات الجليلة، كيف يتسع عقله لأزلية المادة التي تنافي الأزلية منافاة مطلقة؟! إن القوى والصور الحاصلة من حركة الذرات كما يدّعون، لا تشكل المباينة الجوهرية للأنواع بسبب عَرَضيتها، فالعرض لا يكون جوهرًا قط. بمعنى أن فصول هذه الأنواع والخواص المميزة لعموم الأعراض، إنما هي مخترع من العدم الصرف، والتناسل في التسلسل إنما هو الشرائط الاعتيادية".

الطبيعة والخلق

إن القول بقدم المادة، وتسلسل الأسباب من غير نهاية، وكذا ادعاء عدم أصالة جنس الكائن، وكونه حلقة ضمن "سلسلة التطور"، سيؤدي إلى بروز "عقيدة جديدة" يمكن الاصطلاح عليها بالدين "الطبيعي" أو "الطبائعية"، والتي يتم التعبير عنها في العادة بمصطلحات ومقولات -من مثل "الطبيعة الخلاقة"، "غضب الطبيعة"، "الطبيعة المنتقمة"- الكائنات التي طورت قدراتها، والحيوانات التي طورت وسائل دفاعية لأجل البقاء، ذلك الحيوان الذي تمكن من البقاء والاستمرارية بفضل قدرته على التكيف والتطور وغيرها.

ما هذه الطبيعة والقوانين والقوى التي يسلّون بها أنفسهم؟ يتساءل النورسي: "إن الطبيعة هي شريعة إلهية فطرية أوقعت نظامًا دقيقًا بين أفعال وعناصر وأعضاء جسد الخليقة المسمى بـ"عالم الشهادة"، هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بالطبيعة والمطبعة الإلهية.. نعم، إن الطبيعة هي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون، أما ما يسمونه بـ"القوى" فكل منها حكم من أحكام هذه الشريعة، أما القوانين فكل منها عبارة عن مسألة من مسائلها، ولكن لاستمرار أحكام هذه الشريعة واطراد مسائلها، وتهيؤ النفوس التي ترى الخيال حقيقة وتريها هكذا، تسلّط الخيال وضيق الفهم،

hiragate.com

فتجسمت الطبيعة حتى أصبحت موجودًا خارجيًّا وتنزلت من الخيال إلى المثال. وكم للوهم من حيل تروج.

لا يقنع العقل، ولا ينجذب الفكر، ولا يأنس نظر الحقيقة إلى كون آثار القدرة التي تتحير منها العقول صادرة من صنعة هذه الطبيعة الشبيهة بالمطبعة، أو من أمور يسمونها قوى عامة. علمًا بأنها تفتقر إلى قابلية لتكون مصدرًا أو علّة لوجود هذه الكائنات، فليس إذن إلا التغافل عن الله الحكيم، وإلا الاضطرار المتولد من إلجاءات الانتظام الجاري في الكون، فيتخيلون الطبيعة مصدرًا وهي ليست إلا مِسطرًا. وما محاولة إنتاج الملزوم الأخص من اللازم الأعم، إلا قياس عقيم. وهذا القياس العقيم فتح الطرق الكثيرة إلى وديان الضلالة والحيرة".

عند الكينونة الغافلة، غالبًا ما يولد الارتباط السببي بين الكائنات المتعددة داخل الطبيعة، وهم الخالقية والشعور الغامر بقوتها وقدرتها، أي أن "التطورية" استعادت داخل الطبيعة ذلك الشعور الديني المفقود الذي أخفق اللاهوت الكنسي في عرضه وتقديمه.

إن "شريعة الطبيعة" -كما يقول النورسي- هي نظام الأفعال الاختيارية، فمع كثرة المخالفات والخرق، يتصور كثير من الجهلة كأن الشريعة حاكم روحاني، ويتصورون النظام كأنه سلطان معنوي، فيتخيلون أن لهما تأثيرًا.

فالبدوي الذي لم ير الحضارة، إذا ما شاهد حركات الجنود في طابور حركة مطردة، وأطوارًا منسقة وأحوالاً مرتبطة، ظن أن هؤلاء الأفراد العديدين أو الهيئة العسكرية، مرتبط بعضهم ببعض بحبل معنوي! أو أن شخصًا عاميًّا أو ذا طبع شاعري، تراه يتصور النظام الذي يربط الناس بعضهم ببعض، موجودًا معنويًّا، أو يتصور أن الشريعة خليفة روحانية، وهكذا يغالي من يتصور الشريعة الفطرية الإلهية المتعلقة بأحوال الكائنات أنها الطبيعة. تلك الشريعة التي لم تخرق إلا تكريمًا للأنبياء وتصديقًا للأولياء، إذ هي مستمرة دائمة. فكيف لا تتجسم الأوهام على هذا النمط من التصورات؟

وكما أن صفة "النظام" و"النسق" التي تميز علاقات الكائنات في الطبيعة، توهم الإنسان بوحدة الوجود أو بوجود "عقل طبيعي" حاكم، كذلك طبيعة التفكير الإنساني الموسومة بالجزئية، تكرس لديه ألوهية الطبيعة.

إن استماع الإنسان وتكلمه وملاحظته وتفكره -كما يقول النورسي- هو جزئية تتعلق بشيء فشيء على سبيل التعاقب، كذلك همته جزئية لا تشتغل بالأشياء إلا على سبيل التناوب، فبوساطة التعاقب يتعلق بشيء فحسب وينشغل به. ثم إن قيمة الإنسان بنسبة ماهيته، وماهيته بدرجة همته، وهمته بمقدار أهمية المقصد الذي يشتغل به.

ثم إن الإنسان إلى أي شيء توجّه يفنى فيه وينحبس عليه، وكأنه يكون مصداق "الفناء في المقصد". فبناء على هذه النقطة ترى الناس -في عرفهم- لا يسندون شيئًا خسيسًا وأمرًا جزئيًّا إلى شخص عظيم، بل إلى الوسائل، ظنًا منهم أن الاشتغال بالأمر الخسيس لا يناسب وقاره، وهو لا يتنزل له، ولا يسع الأمر الحقير همته العظيمة، ولا يوازن الأمر الخفيف مع همته العظيمة.

يدرك الإنسان الأشياء عادة من موقع إنسانيته، وفوق ذلك لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا. وحده الإنسان "المتعدي" أو الإنسان "الذاكر" مَن يحكم الكليات، ويجمع الجزئيات، ولا تغرقه التفاصيل، ولا يقتله "اليومي".. ذلك أن من شأنه إذا تفكر في شيء -يقول النورسي- "يتحرى مقاييسه وأسسه في نفسه وإن لم يجدها فيما حوله وفي أبناء جنسه. حتى إنه إذا تفكر في واجب الوجود المنزّه عن الشبه بالممكنات، تلجئه قوته الواهمة لأن يجعل هذا الوهم السيء المذكور دستورًا، والقياس الخادع منظارًا، مع أن الصانع جل جلاله لا يُنظر إليه من هذه النقطة، إذ لا انحصار لقدرته؛ لأن قدرته وعلمه وإرادته ﷻ كضياء الشمس -ولله المثل الأعلى- شاملة لكل شيء وعامة لكل أمر، فكما تتعلق بأعظم شيء تتعلق بأصغره وأخسه. فمقياس عظمته تعالى وميزان كماله سبحانه، مجموع آثاره، لا كل جزء منه، إذ لا يصلح أن يكون مقياسًا. وهكذا فقياس واجب الوجود بالممكنات قياس مع الفارق، ومن الخطأ المحض المحاكمة العقلية بالوهم الباطل المذكور". ■

(*) أكاديمي وباحث / المغرب.

المراجع

(١) كليات رسائل النور، صيقل الإسلام / محاكمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

hiragate.com

سمر فتحي*

القصة القصيرة وتحديات العصر

مجلة حراء نموذجًا

١ القصة القصيرة فن أدبي ظهر في العالم العربي في أوائل العشرينيات بعد ظهوره في الآداب الأوروبية، وكما حافظ الشعر العربي في فترات طويلة متقدمة على اللغة العربية، كان للقصة القصيرة أيضًا إسهام في الحفاظ على العربية رغم ما حلّ بها من عامية اللغة، إلا أن هناك بعض المحافظين عليها، الذين يرتسمون خطى السابقين ويسيرون عليها.

وكما أسهمت المجلات في ظهور هذا الفن ونشره منذ زمن، كان لمجلة "حراء" الدولية دورها في

الحفاظ على العربية من خلال ما يتم نشره من مقالات وأشعار، وكان للقصة القصيرة مكانتها في المجلة.

يضم موقع "حراء" الإلكتروني ما يقرب من الأربعين قصة قصيرة، لحوالي ثلاثين كاتبًا من جنسيات مختلفة، اختلفوا فيما بينهم واجتمعوا على لسان عربي مبين.

من خلال القراءة المتأنية لبعض القصص، نستطيع أن نقف على فنيات القصة القصيرة في مجلة حراء؛ فالقصة هدفها تعليمي تربوي، إسلامي في طابعه العام، يمكن أن ندرج الكثير منها تحت مسمى "الأدب الإسلامي". وهذا ما نجده في قصة "التوبة"، وقصة "مناجاة أم" التي يبين من خلالها الكاتب، أن الإنسان مهما كان به من ألم أو ضيق، يستطيع أن يقدِّم المساعدة للآخرين؛ فالأم الطبيبة رغم ما تعانيه من ألم على مرض ابنها، فإنها تذهب لتقدم يد المساعدة لطفل آخر في قرية نائية، وعندما يشتد الكرب بأم الطفل الفقير، تطلب من الجميع أن يصلّي ويناجي الله ليفرج الكرب عن طفلها.. فتتذكر الأم الطبيبة طفلها، ثم يجلسون جميعًا يتضرعون إلى الله، ثم تترك الطبيبة مَبلغًا من المال لأم الطفل لترعى ولدها وتعتني بصحته جيدًا.

أما قصة "وابناه.. لتكن أنت الفداء" فهي قصة تربوية تبرز قيمة المبادئ والقيم التي يتحلى بها معلمو الأجيال، ليكونوا عبرة وقدوة لغيرهم.

وفي قصة "الحروف المهاجرة" يصور الكاتب حالة من الاغتراب والهروب للغة لطالما لملم صاحبها بقاياها؛ ليتعلم أبجدياتها من جديد حتى يكتب لمن يحب عمن يحب.. فاللغة دائمًا تعجز أمام الأشواق الملتهبة بين الضلوع.

من السطور الأولى يأتينا يقين أن هذه الأم ما هي إلا رمز لأم أكبر، وحضن أرحب هو الوطن (فلسطين)، رغم أن الكاتب لم يصرح عن اسمها إلا في نهاية القصة حين قال: "كان متلهفًا لصباح الغد حين يجيء ويأخذ خطابه أول ذاهب لفلسطين".

القصة تصف حالة من المشاعر الفياضة نحو وطن مغتصب.. تشرد أبناؤه، والأمل يملؤهم بالعودة

حاولت "حراء" من خلال قصصها القصيرة، أن تواجه تحديات العولمة وأثرها على تنشئة أجيال جديرة بالحياة، قادرة على تحمل المخاطر المحيطة من كل جانب، متجهة نحو الدين والقيم والمثل والمبادئ الإنسانية.

حراء

ظافرين، يكتفون بمجرد رسائل يرسلونها إلى الأم في صورتها الحقيقية والمجازية المتمثلة في الوطن.. تصف القصة حالة التيه والحرمان التي يشعر بها أبناء الوطن وحلمهم بالعودة ظافرين، محملين بالأمل الذي يغير وجه المدائن المسجونة في دموعها. أما عن الكتابة التي تعلمها الابن البار، فما هي إلا حالة الوعي الجمعي له ولإخوانه الذين قرروا العودة وعدم الاستسلام.. فمهما طال الزمن وتناءت المسافات، فلا بد من عودة تغسل وجه المدينة من دموعها.

أما عن "نهاية الجبروت"، فالقصة تعتمد على عنصر التشويق الذي يدفع المتلقي إلى تصور بعض الأحداث مسبقًا، ثم يتقدم الحدث ليغير ما نتوقعه.. فالملك يبدأ رحلة في البحر، فنظن أنه يريد أن يدع حياة الملوك ليعيش حياته الطبيعية كإنسان حر لا تقيده سلطة، يريد أن يستمتع بالطبيعة وجمالها في حالة من التأمل الذاتي، لكن سرعان ما يتلاشى هذا الإحساس والتعاطف الذي أخذنا معه، إذ يبدأ تسلطه وكأنه يريد من الطبيعة أن تأتمر بأمره كما الجنود والحراس.. وحين تأتي لحظة النهاية تكون المفارقة بين حال الملك في استقباله للصباح، وحال العامة البسطاء في استقبالهم لنسيم الصباح. القصة على بساطتها، تحمل العديد من المفارقات، ومع هذه المفارقات نضع الكثير من التساؤلات حول طبيعة النفس البشرية حين تتولى سلطة؛ لتنتهي القصة إلى حالة من العظة من حياة هؤلاء المتجبرين المتكبرين في الأرض.

عتبات النص

من المصطلحات التي ظهرت على الساحة حديثًا،

hiragate.com

ما عُرف بعتبات النص، أو النص الموازي، أو النص المحيط؛ وتعرف هذه العتبات على أنها الباب الذي ندلف منه للفضاء النصي لفتح مغاليقه.. فهي تمثل مستوى من مستويات قراءة النص. ومن هذه العتبات: العنوان، الغلاف، الإهداء، الحواشي، التصدير، كلمة الناشر، كلمة المؤلف. وما يعنينا في هذا المقام حسب ما تقتضيه طبيعة القصص المنشورة، عتبة العنوان، وعتبة الغلاف المتمثلة في الصورة المرفقة بكل قصة. هاتان العتبتان تمثلان رأي مجلة "حراء" فيما تختاره من غلاف، ومن تدخل -أحيانًا- لتعديل في عنوان القصة المنشورة. فهي بذلك تمهد الطريق أمام القارئ للدخول إلى عالم النص، حاملاً معه إشاراته الدلالية والإيحائية، والتي قد تتوحد مع النص أو تختلف معه.

العنوان

العنوان هو الخطوة الأولى التي يقدم بها العمل نفسه إلى المتلقي، فهو بذلك يمتلك بنية ودلالة لا تنفصل عن خصوصية العمل الأدبي. فهو بنية ليست زائدة، وإنما نظام له أبعاده الدلالية والرمزية والسيميائية. فهو نص مواز للنص الأدبي، له وظيفتان؛ وظيفة المطابقة، والوظيفة الإيحائية الدلالية. ومن خلال القراءة المتأنية لعدد من القصص وعناوينها، نستطيع أن نقف على وظائف العنوان في بعض القصص المختارة.

١- التوبة: جاء العنوان صريحًا ومطابقًا لأحداث القصة التي تسرد حياة فتاة بدأت حياتها بين والدين لا يعرفان للاستقامة طريقًا، تستمر حياتها هكذا إلى أن تدخل الجامعة وتصادف صديقة تكون لها بمثابة الطريق الذي تسير فيه نحو الهداية.

فالعنوان جاء مطابقًا للنص لا يشتمل على أي نوع من أنواع المفارقة. وكذلك معظم القصص المنشورة بالمجلة التي تعتمد الوضوح والسهولة والمطابقة بين العنوان وبين النص؛ لتحقق هدفًا من أهدافها المرجوة في توصيل الفكرة، والقيام بدور إصلاحي وعظي ديني.

٢- نور: جاء العنوان صريحًا ومطابقًا لاسم بطلة القصة الطفلة نور، ومع هذا العنوان الصريح يأتي المعنى الضمني الذي حملته القصة؛ فنور كانت بمثابة طاقة نور تعيد للرجل ابتسامته، وتنير طريقه رغم المأساة التي يمر بها.

٣- لست وحيدًا: جملة تكررت مع بطلين رددها المؤلف مرتين ليؤكد على أن الإنسان لم يخلق وحيدًا. فالبطل الأول وهبه صاحب المرسم حياة أخرى غير الحياة اللاآدمية التي كان يحياها، وحين كبر وقف أمامه نموذج مصغر من حياته الماضية وكأن الزمن لا يكف عن الدوران، وكأن الأيام تعيد نفسها مع اختلاف طفيف في اسم وشكل الشخصيات، فقرر أن يهب لهذا الغلام حياة أخرى كما وُهِبَت له من قبل. فالقصة توقفنا على البعد الإنساني في حياة البشر، وكيف أن الإنسان لا يكون وحيدًا مهما كانت الظروف من حوله، فقد يسخّر الله له من يخرج له من رحم اليأس أملاً.

الوظيفة الإيحائية

تظهر هذه الوظيفة في قصة "بين السماء والأرض"، فالقصة تسرد حياة طفل تعلق بجده الذي توفي في سن مبكرة، فحين يزوره مع أمه في قبره ويسألها عن وضعه، وكيف يعيش جده في هذا المكان الضيق، تخبره أن هناك سلمًا يربط بين القبر والجنة التي يسكنها جده، إلى أن يحين موعد اللحاق به لمرضه وعدم تمكنه من العلاج، فيخبر أمه أنه سيكتب قصة عن حياته ويتقدم بها ويبدأ في سرد أحلامه، وتنتهي القصة بأن الفقراء موطنهم السماء. فجاء العنوان تلميحًا وليس تصريحًا عن الحياة التي يعيشها هؤلاء الفقراء على الأرض وآمالهم المؤجلة، لحين صعود السماء، فإن تأخر الأجل تظل الآمال معلقة بين السماء والأرض.

أما عن "جواز مرور"، فجاء العنوان إيحاءً عن الواسطة والمحسوبية التي تسير بها بعض الشعوب ضاربة بالشهادات والخبرة وكفاءة الشباب عرض الحائط، وهذا ما كان مع الشاب الذي يملك الذكاء والخبرة والشهادات التي تؤهله للعمل بإحدى السفارات، لكن لم يتوفر معه أهم شيء وهو "الواسطة"، فجاء العنوان "جواز مرور"، وكأن "كارتًا" من أحدهم بمثابة إشارة لقبول هذا الشخص، وهذا ما لم يتم معه.

hiragate.com

عتبة الغلاف

تبوح هذه العتبة بالكثير، يقف أمامها المتلقي ليتعرف على النص، ويحرص الناشر على أن تعبر عن النص المكتوب بحملها لدلالاته. وللغلاف تشكيلان: تشكيل واقعي، وتشكيل تجريدي. وأغلب الصور المرفقة بالقصص تشكيلها واقعي؛ حيث تشير بشكل مباشر إلى أحداث القصة، أو على الأقل تشير إلى مشهد مجسد من أحداث القصة.

ففي قصة "الشوكة" ترفق معها صورة غصن به أشواك لونها أحمر دامي، وهي إشارة إلى الشوكة التي أصابت البطل في صغره، ورغم أنها شوكة واحدة مادية أصابته فإن الغصن يحمل العديد منها، في إشارة إلى الشوك المعنوي الذي أصاب قلبه في الكبر. وقد ترددت هذه اللفظة مرات عديدة إشارة إلى الشوك المادي والمعنوي في القصة.

أما قصة "العائد إلى الله"، فهي لشاب يمر بوعكة صحية تجعله يعود إلى رشده، ويترك طريق الشيطان، ويسير في طريق النور والهداية بمساعدة إحدى قريباته.. فجاءت الصورة معبرة بشكل مباشر عن هذا الصعود في العلاقة مع الله؛ حيث يصعد الشاب درجات سلم تاركًا السفح متجهًا نحو القمة.

تشكيل تجريدي

يقصد به صورة تجريدية تحمل دلالات تعود على النص ذاته، وإن كان هذا النوع من الصور يعود في تأويله إلى ذاتية المتلقي، ومدى قبوله أو رفضه في حمل الصورة لدلالات النص ومضمونه. وذلك في قصة "لست وحيدًا"؛ فالصورة المرفقة عبارة عن طائر يحلق، ولأن عادة الطير الطيران، ومن يتخلف في عشه ولا يلحق بالسرب يكون وحيدًا، فقد جاءت الصورة لطائر يحلق عاليًا بين إخوانه، فهو ليس وحيدًا.

ليلة ممطرة: تكتمل في هذه القصة عناصرها من شخصيات، ووحدة الزمان والمكان والحدث، وتصاعد الحبكة حتى تصل بنا إلى المفارقة، محققة عنصر التشويق.

تبدأ القصة بوصف لوحة جميلة عبّر العنوان عن جزء منها، والغلاف عن جزء آخر. فالقصة لوحة تتراءى من خلالها الأحداث بمكوناتها السمعية والبصرية المتمثلة في المطر والرعد والبرق. وتأتي الصورة ليكتمل مشهد الرؤية بفنجان القهوة، والضوء الخافت حولها، وظل الفنجان المنعكس بجانبه، وبذلك تكتمل الصورة البصرية والسمعية لدينا، ثم تستكمل القصة بالبطل الوحيد سعيد بهذا المنظر الجميل، حتى وصل به الأمر إلى حد أنه لا يشعر معه بوحدة رغم وحدته الحقيقية، وفي لحظة الصفو هذه، يدق جرس الباب فيقوم على مهل ليفتحه، فيجد فتاة حسناء تريد أن تحتمي من المطر ببيته، يدخل ليحضّر لها فنجان القهوة ليخرج فلا يجدها، ويتفاجئ بساعته الذهبية قد اختفت من على مكتبه، فيعود إلى جلسته صامتًا وحيدًا حزينًا. وهنا تكمن المفارقة، فرغم سعادته المؤقتة بوجودها، فقد خلفت له حزنًا وعمقت بداخله صمته ووحدته وخيبته في وجود البشر من حوله. أخيرًا نجد أن العنوان والصورة المرفقة بالقصة تضافرا معًا ليرسما مشهدًا حيًّا لنا.

وبعد جولتنا بين ربوع بعض الدول التي مثل مبدعوها ثقافتها، نستطيع أن نختم بقولنا: استطاعت مجلة "حراء" أن تجمع بين العلوم والثقافات المختلفة، وأن تجعل من صرحها بيتًا يجتمع فيه مبدعون وكتّاب من دول مختلفة، فرقهم الزمان والمكان والثقافات، شتَّتتهم سياسات وحسابات أخرى فرضت عليهم؛ لكنهم اجتمعوا على لسان عربي وقيم إنسانية مشتركة، فظهروا جميعًا في ثوب واحد. وفي خضم معركة الصراع المتلاحق والتقدم، لم تكتف بالوقوف ناظرة فواكبت في ثوب القصة والشعر والدراسات الحديثة، فجمعت بين الأصالة والمعاصرة.

لقد حاولت مجلة "حراء" من خلال قصصها القصيرة، أن تواجه تحديات العولمة وأثرها الخطير في تنشئة أجيال جديرة بالحياة، قادرة على تحمل المخاطر المحيطة من كل جانب، مصوبة سهامها على الدين والقيم والمثل والمبادئ وغياب القدوة والصحبة الصالحة. فقد ركزت القصص على كل الغياب الذي لا بد من حضوره حتى نرتقي بأنفسنا أولاً وتتبعنا البقية. ■

(*) كاتبة أدبية مصرية.

hiragate.com

د. محمد أعراب*

التصوف ورؤية العالم

تعتبر "رؤية العالَم" (Worldview)، الموازي الفكري للفلسفة، ويعتبرها البعض تتويجًا للفلسفة النسقية وندًّا لها، وهي نسق من العناصر التي تتيح لنا إمكانية مقاربة الرؤية الفكرية للمجالات غير الفلسفية، مثل ثقافة شعب أو الديانة أو النظريات.. وهي تتكون من ستة عناصر محدّدة بأسئلة دقيقة هي: ما هو؟ (يوازي السؤال عن ماهية الوجود)، ومن أين جاء؟ (مسألة التفسير والتأويل)، وإلى أين نتّجه؟ (سؤال يستشرف المستقبل)، وما هو الخير وما هو الشر؟ (سؤال القيم ويوازي الأكسيولوجيا)، وكيف ينبغي أن نتصرّف؟ (سؤال العمل أو البراكسيولوجيا)، وما هو الحقّ وما هو الباطل؟ (مسألة الحقيقة وتوازي الإبستمولوجيا).

ومن ثم يتبيّن لنا أن نموذج "رؤية العالَم" أو النظرة إلى العالم، يغطّي كل الأسئلة الأساسية التي تحقّق إشباعًا معرفيًّا، وتمنح نظرتنا معنى ودلالة، وتوجّه سلوكنا في الحياة. سنحاول في هذه السطور القليلة، مقاربة الخطاب الصوفي وفق أسئلة نموذج رؤية العالم، ولكن قبل ذلك سنقوم بمقارنة بين الخطاب الصوفي والخطاب الفلسفي.

عندما نتحدث عن التصوف، فإننا نجد أنفسنا في "براديجم" (Paradigme) خاص يختلف عن العلم والفلسفة والفن ويقترب من الدين ويقاربه، بل إنه يُعتبر جوهر الدين. ولكن هذا لا يعني أن التصوف يخلو من الفكر والفن والعلم. فالتصوف باعتباره إطارًا فكريًّا، هو رؤية للعالم واعية بذاتها، تفترض موقفًا خاصًّا من الله والإنسان والعالم، وتدمج في طيّاتها لمسات من الفن والعلم معًا. فالتصوف -في المقام الأول- نمط أو أسلوب حياة، وهو أيضًا منهج لاستبطان البعد الأقصى للواقع، مدفوع بالرغبة في إدماج هذا البعد في الوجود الإنساني أو الاندماج فيه، إنه بحث ونشاط وفعالية

وإرادة للتحول الباطني. إن التصوف رؤية للعالم وليس فلسفة، رغم أن الأول يتضمن ميتافيزيقا شبيهة إلى حد بعيد بما قد نجده في الفلسفة، حتى إننا نجد بعض الصوفية في عداد الفلاسفة. وهذا التمازج بين الإطارين الفكريين لا ينبغي أن يُنسينا الفرق الجوهري بينهما.

إن الأصل في الفلسفة هو الدهشة الباعثة على التفكير الذي سعى للانتظام وفق منطق محدد يقي الفكر مزالق التناقض وتمطط الأفكار. فالفيلسوف مهووس بالنظام والاتساق، حتى إن من معاني "اللوغوس"؛ النظام والقاعدة والمنطق والقانون واللغة. ومهمة الفيلسوف هي أن يرفع الحُجب عن الحقيقة، وأن يُعيد بناء الوجود من خلال خطاطات العقل من أجل الفهم والتفسير.

أما التصوف فلا يهمه بالأساس تقديم نظرية معرفية في الوجود، ولا يهمه أن يشكل نظرية متناسقة يُخضعها لمنطق جامد وأن يجادل الخصوم المفترضين.. إن التصوف رؤية للعالم تستقي تبصّرها من ينبوع ثري لا ينضب هو الوجدان الحي. فالمتصوف يعيش أولاً تجربة وجدانية يعاني مخاضها ويتذوق عذوبتها الخمرية، ثم يحاول بعد ذلك أن يسكب تلك الخمرة في كؤوس اللغة، لكن سرعان ما تستحيل التجربة الحية أفكارًا جامدة، ويتحول الخمر إلى ماء لا طعم له. فالمفارقة التي يعيشها المتصوف مع اللغة هي أنها إخفاء للكشف.

وإذا تقدمنا خطوة أخرى نرى أن الفرق الجوهري بين الفلسفة والتصوف، يكمن في منبع التجربة. فالينبوع المتدفق الذي يسقي جذور التجربة الصوفية والذي يروي خطابه، يكمن في القلب النابض بذبذبات الحب. فالتصوف زهرة بذرتها ونواتها الأولى هي الحب الذي يحل محل الدهشة الفلسفية. ففي البدء كان الحب، ثم كان كل شيء بعد ذلك. أما الفكر الفلسفي، فلم ير في الحب الصوفي سوى سقطة مردها إلى النفس النزوعية التي تغرقها في خيالات جامحة.

لم ير الفكر الفلسفي في الحب سوى شائبة من شوائب الوهم الذي يكدّر صفو العقل. أما التصوف فإنه يرى في الحب ذلك النور الذي يتجلى به الوجود، والإشراق الروحاني الذي يملأ القلب سموًّا ورفعة، ويقدح زناد البصيرة، فيغدو الوجود قصيدة وسماعًا، ويطرب الصوفي

إذا كان العقل هو مصباح الفيلسوف الذي ينير عتمة دربه، فإن الصوفي ينخرط بكلّيته في تجربة عشقية تتجاوز حدود العقل وتستشرف أفقًا فريدًا وعوالم أخرى.

وجدًا ووجدانًا. فالحب إذن، هو قلب التصوف، والقلب هو جوهر التصوف، والحب هو ماهية القلب.

يقول "هنري برغسون" (H. Bergson): "ليس هذا الحب امتداد غريزة، ولا هو مشتق من فكرة.. ليس هو من الحس ولا هو من العقل، بل هو هما معًا على نحو ضمني، وهو أكثر منهما معًا بالفعل. ذلك أن هذا الحب هو أصل العاطفة، وأصل العقل، وأصل سائر الأشياء، وهو متحد بحب الله لخلقه، هذا الحب الذي خلق كل شيء.. ولذلك فإنه يسلم سر الخلق إلى كل من يستطيع أن يسأله إياه.. إنه من جوهر ميتافيزيقي لا أخلاقي فحسب، إنه يريد -بعون الله- أن يتم خلق النوع الإنساني، ويجعل من الإنسانية ما كان يمكن أن تكونه لو استطاعت أن تتكون نهائيًا بغير عون الإنسان نفسه".

فـ"برغسون" هنا، يشيد بالحب الصوفي ضد العقل الآلي والأناني الذي يشكل خطرًا على الإنسانية في أحيان كثيرة لو ترك دون عون من الدين والغريزة والحدس. فالحب هو الأصل، والحب هو النور الذي به تنكشف الأشياء.. لهذا قال "أبو الحسين النوري" حين سئل عن المحبة: "هتك الأستار وكشف الأسرار". هكذا تسري المحبة في شرايين المعرفة، فتُمدّها بالحياة والنسغ والصفاء. فالمحبة تولدت من نظر العارفين ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكان حبهم بلا علة.

لا نستطيع في هذه العجالة استقصاء كل أبعاد العلاقة بين الخطابين، يكفي أن الإشارة نابت عن تفصيل العبارة. فكلا الخطابين يقارب الوجود بأدواته وممكناته، لكن إذا كان العقل هو مصباح الفيلسوف الذي ينير عتمة دربه، فإن الصوفي ينخرط بكلّيته في تجربة عشقية تتجاوز حدود العقل وتستشرف أفقًا فريدًا وعوالم أخرى. ■

(*) المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، إنزكان / المغرب.

قطوف
فتح الله كولن

تدريب الأجيال على
الخروج من ضيق البدن

إن أنجع الأمور وأجداها في بناء الجيل الحاضر هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وحقائق الوجود بتحفيز عزم التفكر المنظم لديهم، وتحبيبُ الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح.

علينا أن نقدم إلى آفاق مداركهم وعقولهم تلك التصوراتِ المذكورةَ بالوسائل المرئية والمسموعة، وأن ننقلهم إلى عوالم أرحب عن طريق إنقاذ أرواحهم من السجن البدني الضيق. ثم إزالة الكدر والقسوة من أرواحهم، وإيقاظ قلوبهم المتأججة شوقا إلى الآفاق الماورائية على أجمل التطلعات الإنسانية وأرقها وأخفاها وأكثرها سحرا ودلالا. وإذا نجحنا في ذلك فسنكون قد بشرناهم بالانبعاث من جديد.

إن الأرواح التي لم تكتسب خفة بالتصفية بالايمان والمعرفة والمحبة

لـن تَقْـدر أبـدا علـى التحليق في سـماواتِ مـا بعد الأفق. بـل دع التحليق فـي سـماوات ما بعـد الأفق، فتلك الأرواح الجائعـة لا تنفك عن التلوث بالرغبات الدنيوية، فتمتلئ قلوبهم بالأحقاد وتطفح بالكراهية، ويقـع نظامُ الـروح أسـيرا فـي قبضة جهـاز النفس، ولا يزيدون على الأكل والشـرب والنوم والجلوس والقيام، فيغدون عبيدًا للبدن يأبون الانعتاق!

إن الحقيقـة الفريـدة التـي يتلقاهـا روح الإنسـان مـن كل مـن الإيمـان والمعرفـة وتعلـقِ القلب بالله هـي المحبة، أما الحقـد والكراهية وجوانب الضعـف البشـري فتـزول -حتمًـا- بحلـول هـذه القيـم السـامية. أجل، إن معاني الإيمان والمعرفة والمحبة توحد بين الإنسان والكون، وفي الوقت عينـه تنجيـه مـن عذاب الكثرة وآلامهـا، فتذيب وحدته ووحشـته الجوانية فـي إكسـيرِ "معية" الحـق تعالى، فتحوّل حياتَه إلى لذة أبدية ونشـوة خالدة تجعله يرتشفها كأسًا بعد كأس.

إن الأجيـال المنطلقـة إلـى الغـد المجهَّـزةَ بهـذا الجهـاز والمـزودةَ بهذا الزاد، تنتشـر وتهاجر إلى جهات الأرض الأربـع بعشـق عميق وشوق عظيم ومن غير الانسـياق لمكسـب أو مربح، بل من أجل الارتقاء بالنوع البشـري كلـه إلـى الكمـالات الإنسـانية. ومـع الابتعـاد عن تطلعات الشـهرة والمجد ابتعادا كاملا، ستتحمل أقسى الظروف وتنهض بأثقل الأعمال ثم تغادر ولا تلتفت إلى الوراء ولا تعبأ بحمد أو إطراء.

هـؤلاء، أينمـا حلـوا، سـيَصبغون كل عيـن وكل قلـب بألـوان الاحتـرام والخشـية البادية والفائضة على تصرفاتهـم، حتى إن لم يتحدثوا عن الدين، أو لـم يلفظـوا بقـول عـن التديـن. وسـينفتح كل مـن يتصـل بهم علـى آفاق "الروح" الرحبة والغنية، بدلاً عن الحقائق النسـبية والقصيرةِ الأبعادِ للمادة، فيبلـغ سـعةً تتعـدى الخيـال فـي الدنيا نفسـها، وينـال "عرش مملكـة" يعجز الكلام عن وصفها. ■

(*) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:٢٣-٢٤، دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠١١، الطبعة الثانية، القاهرة. وعنوان المقال من تصرف المحرر.

د. أحمد يحيى علي*

بانت سعاد

اللغة وعاء حامل للفكر والشعور، ولقد قيل عنها إنها كائن حي، ولكن لماذا؟ لأن اللغة انعكاس لهوية الإنسان؛ فما هذا المخلوق (الإنسان) إلا عقل وقلب، أي فكر وعاطفة، لذا كان من البَدَهي أن يشير نبينا ﷺ إلى تأثير الكلمة التي ما زالت تمنح للكلمة الشاعرة المربية قيمة تحيا بها عبر الزمن، يقول ﷺ: "إن من البيان لسحرًا وإن من الشعر لحكمًا" (رواه الطبراني). ولعل قصيدة كعب بن زهير التي

جاء يعتذر له فيها عن سلوك كان في حقبة الجاهلية التي قدر الله لها أن تتبدد بنور الهدى والإيمان من أبرز الأمثلة لذلك.. وإذا كان الناس ينكبون على مناخيرهم في النار بحصائد ألسنتهم، إذن يمكن القول إن الكلم الطيب الذي تدفعه نية يرضى عنها الله، يورد صاحبه موارد النجاة ومراتب السعادة.

وكعب بن زهير شاعر مخضرم عاش الجاهلية بقوانينها، وعندما جاء الإسلام كانت له كبوة جعلت من مكوثه على الكفر حالاً سلبيًا بقي عليه سنين، حتى بعد أن فتح الله لنبيه مكة وخرج بعدها إلى الطائف غازيًا، لم يتحرك قلبه لنور الإسلام إلا بعد أن خاطبه أخوه بُجير بن زهير يدعوه إلى الإسلام، وهما ولدا الشاعر الفحل زهير بن أبي سلمى من قبيلة مزينة، الذي علمهما كيف يقرضون الشعر، فكانت النتيجة شهرة تُرضي غرور المبدع الباحث عن الحضور والانتشار والمكانة، لكن هذا الانتشار بالكلمة الشاعرة كان له وجهان عند كعب:

الأول: جاهلي ظهر واضحًا بعد خروج دعوة الإسلام إلى النور بقصائد يعلن فيها الحرب بالكلمة على الدين ومتبعيه.

الثاني: مسلم يتجلى نوره ساطعًا في قصيدته التي جاء بها معتذرًا إلى النبي ﷺ، وكان ذلك بعد الفتح في العام الثامن للهجرة.

رحلة بانت سعادة

والرحلة في "بانت سعاد" تكشف عن أمور عديدة وهي كالتالي:

الأول: كونها تقوم على غرض شعري تقليدي معروف منذ النابغة الذبياني في عصر ما قبل الإسلام، ألا وهو غرض الاعتذار.

الثاني: ارتباطها الوثيق بكثير من قوانين القصيدة العربية التي جرت مجراها منذ القديم، ومن ذلك بدايتها الطللية: بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ

متيَّمٌ إِثْرَها لمْ يُفد مكبولُ

جاء كعب بن زهير إلى النبي ﷺ ليظهر الإيمان ومعه الاعتذار وجها لوجه، وإن حضور ضمير الخطاب في داخل نص قصيدة بانت سعاد، يبدو مبررًا إلى حد كبير بالنظر إلى التجربة الشعورية، وسيرة الشاعر والمرحلة التي شهدت ظهور مُنتجه الشعري إلى النور.

الثالث: هذا اللقاء بالتاريخ الذي يقيمه كعب في داخل عالمه الشعري، يبدو ذلك في تقاطع "بانت سعاد" مع محطات مرت على النبي ﷺ في رحلة بعثه ودعوته وهجرته، إنها تلتقي مع سيرته ﷺ بطريقة تعتمد على ما يسمى في علم السرديات "الاسترجاع" (Flash-back)، ولأن الشعر فن فإن معانقته لما هو تاريخي لا تأتي وفق الترتيب الزمني له كما جرى في عالم الحقيقة والواقع، إنما تأتي عبر منطق تداخلي ينسجم وروح الشعر عمومًا المؤسِّسة على آلية التداعي بناءً على حوار الذات الشاعرة مع نفسها، وما يمليه عليها خاطرها وترتضيه اللغة التي تتشكل في القصيدة.

ففي رحلة النبي ﷺ مع الدعوة والنبوة: البعث، الهجرة، نصرة الأنصار، الغزوات، هزيمة الشرك وأهله.

إننا أمام خطاب من "أنا" متكلمة إلى مخاطب مستمع هو النبي ﷺ، اتساقًا مع الحال القائم خارج القصيدة؛ لقد جاء كعب إليه ﷺ ليظهر الإيمان ومعه الاعتذار وجها لوجه.. ومن ثم فإن حضور ضمير الخطاب في داخل نص القصيدة، يبدو مبررًا إلى حد كبير بالنظر إلى التجربة الشعورية، وسيرة الشاعر والمرحلة التي شهدت ظهور مُنتجه الشعري إلى النور.. إذن يمكن القول إن الاعتذار، بوصفه غرضًا ومعنى، هو بمثابة رحم حاضن لما هو تاريخي يتعلق بالسيرة النبوية، لذا نقف عند هذا البيت ثم ننطلق منه:

أُنْبِئْتُ أن رسولَ الله أوْعدني

والعفوُ عند رسولِ الله مأمولُ

hiragate.com

فمن هذا القريب زمنًا، أي وعيد النبي ﷺ ونية كعب في الاعتراف بالخطأ بالاعتذار، نتوقف عند بعثه عليه أفضل الصلاة والتسليم، ونبوته، وتكذيب قومه له:

إن الرسولَ لنورٌ يُسْتَضَاءُ به
مُهَنَّدٌ مِنْ سيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

إننا ها هنا أمام مزية تمنح لعالم الفن خصوصيته، إنه يختزل المفصل الواقعي على اتساعه في أقل عدد ممكن من الكلمات في تكثيف يدفع الوعي المتلقي إلى الرحيل خارجه، للبحث عن التفصيلات المتصلة بهذا المجمل الفني؛ ففي هذا البيت علامات لغوية على جوانب تاريخية عديدة، هي البعث، والنبوة، والغزوات التي يكشف عنها قوله "مهنّد من سيوف الله مسلولُ".

ثم يأخذنا كعب بن زهير في بيتٍ آخر، إلى دعوته ﷺ في الحقبة المكية، وتكذيب قريش له الذي انتهى به إلى حدث الهجرة:

في عُصبةٍ من قُرَيْشٍ قال قائلهم
ببطن مكةَ لمَّا أسلموا زولوا

إن هذا المشهد يأخذنا إلى حدث مفصلي في تاريخ الدعوة الإسلامية بصفة عامة، ألا وهو حدث الهجرة الذي من خلاله هيأ الله لدينه ولنبيه وللعصبة المؤمنة معه، أنفاس حياة فوق أرض جديدة مستعدة ومرحبة بهذا الدين وأهله، ترى فيه لها شرفًا وتمكينًا وقربى إلى ربها، وهذا مشهد تاريخي صاغه كعب بن زهير شعرًا وأسكنه قصيدته:

يمشونَ مشيَ الجَمالِ الزُّهْرِ يعْصمُهُم
ضرْبٌ إذا عرَّدَ السُّوْدُ التنابيلُ

إنه ها هنا في معرض الحديث عن المهاجرين، مادحًا إياهم، مفتخرًا بشجاعتهم وقوتهم.. ومنهم ينتقل بعدسته الشاعرة إلى الجناح الثاني في طائر هذا الدين:

من سرَّه كرم الحياة فلا يزل
في مِقْنَبٍ من صالحي الأنصارِ
الباذلين نفوسهم لنبيهم
يوم الهَيَاجِ وسطوة الجبَّارِ
يتطهَّرون كأنه نُسُكٌ لهم
بدماء من علِقُوا من الكفَّارِ

إن هذا اللقاء بين ما هو تاريخي وما هو فني عبر قصيدة كعب، يرحل بنا إلى مرحلة ما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث يخط الدين لنفسه صفحات جديدة، فيها الاستقرار، وفيها الغزو بدفع الشرك، والسعي إلى إخماد ناره المشتعلة التي يحاول بها عبثًا القضاء على الدعوة ومنتسبيها.. لذا فنحن في هذا المشهد والذي سبق أمام مكونين، أو لو شئنا قلنا عمودين قامت عليهما عمارة الدين في عهدها الأول، إنهما المهاجرون والأنصار الذين بهما تحقق لهذا الدين عزه ومجده ونصره على القوم الكافرين، والفضل في ذلك -لما أراد الله له أن يكون- يعود إلى محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، الذي آخى بين هذين الفريقين، إذعانًا لهذا القانون الذي نزل في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠).

إذن، فنحن في هذه النماذج من "بانت سعاد"، أمام ما يمكن تسميته إجمالاً فنيًّا، يأتي بعد تفصيل تاريخي واقعي، له أسبقية الحدوث من حيث الزمن.. كأننا مع كعب بن زهير، أمام عرض بانورامي سريع لحدث جلل هز شبه جزيرة العرب ومعه العالم كله؛ هو حدث خروج نبي آخر الزمان الذي أرسله ربه ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور، وما كان ذلك ليحدث لولا المرور على امتحانات الابتلاء للتمحيص وتثبيت الإيمان، وتأكيد فضيلة الصبر التي يجب أن يتحلى بها الداعي إلى الله، التي لولاها ما كان كعب ولا غيره مؤمنًا ينعم بنعمة الإسلام.. نلمح ذلك في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾(العنكبوت:٢). لقد صبر عليه النبي ﷺ وعفا عنه، فكان نتاج ذلك روحًا مؤمنة جديدة تنضاف إلى بنيان هذه الأمة، لتكون وقودًا مضافًا إلى طاقتها في العمل وفي الحركة.. ولعل أمارات هذا الامتحان نجدها تاريخيًّا في الإيذاء الذي تعرض له

hiragate.com

مسلمو مكة قبل الهجرة، وفي محنة الطرد والبعد عن الأوطان، وفي الغزو.. إن القتال فُرض على المؤمنين وهو كرهٌ لهم، كما قال ربنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).

أما عن العلامات النصية في شعر كعب بن زهير الدالة على ذلك، فنجدها في ألفاظ وتراكيب، مثل: قريش، لما أسلموا زولوا، في مِقْنَب من صالحي الأنصار، الباذلين نفوسهم لنبيهم.

إن المقنب ها هنا، الذي يأخذنا إلى الحقل الدلالي الخاص بالخيل والفرسان، يفتح عدسة الرؤية واسعة على واقع حركي يشير إلى أن انتقال هذا الدين من مرحلة الضعف، والامتهان إلى مرحلة النصر والتمكين، لم تأت إلا بتضحيات تم بذلها، لتكون النتيجة كما عبر عنها كعب بن زهير مجملةً في قوله:

صَدَمُوا عليًّا يوم بدْرٍ صدْمَةً
دانتْ لـوَقْعَتِها جميعُ نزارِ

إن علي بن مسعود المقصود ها هنا في البيت، بمثابة شخصية مفتاحية تأخذنا إلى جماعة الشرك على اتساعها. فمن علي بن مسعود الذي كان يناصب نبينا ﷺ العداء إلى بني كنانة إلى حزب الكفر ومن ينضوي تحته.. كل هؤلاء جاءوا في موقع المصدوم الخاسر بالنظر إلى منطوق كعب الشعري، يأتي في مقابلها فتح من الله للفئة المؤمنة، ظل يتمدد ويقوى وتتسع رقعته أفقيًّا؛ حتى وصل الأمر إلى الفتح المبين في العام الثامن للهجرة. لذا يمكن القول بأن كلمة "جميع" ها هنا في بيت كعب، تنطوي على دلالة قلقة لا تنغلق عند معناها الظاهر المحدود البادي في النص "جميع نزار"، بل تشجع على الخروج إلى ما هو تاريخي تمثله السيرة النبوية عند من كتب فيها، كابن هشام، والواقدي في كتابه المغازي، وغيرهما.. ويفسر هذه الهزيمة لآل الكفر، في مقابل اتساع رقعة أهل الإيمان قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾(الرعد:٤١).

ويبدو أن إيقاع المعنى في داخل اعتذارية كعب بن زهير، كان يسير وفق نسق يقوم على التنوع بالانتقال مما هو تاريخي إلى ما هو إنساني عام، إنها الحِكَم التي تضمنتها قصيدته التي بها يخاطب قارئًا غير محدد الزمان ولا معلوم المكان؛ انسجامًا ليس فقط مع طبيعة القصيدة العربية منذ عصر الجاهلية التي كانت تحفل بهذه الحكم، ولكن اتساقًا كذلك مع عالمية هذا الدين.. فهو بما فيه من قيم وفضائل، ليس حكرًا على العرب دون غيرهم، ولا على شبه جزيرة العرب دون باقي أجزاء الأرض. إن نبينا ﷺ جاء لينذر أم القرى ومن حولها، جاء رحمة للعالمين وليس لقومه وحدهم في زمان ظهوره. لذا يمكن القول، إن الحكمة في اعتذارية كعب بن زهير على وجه الخصوص، يلتقي عندها ما هو فني يشير إلى قانون القصيدة العربية كما رأينا عند زهير بن أبي سلمى أبيه وغيرهم ممن أسكنوا قصائدهم بشعر الحكمة، وما هو متصل بعمومية رسالة الإسلام وكونها للناس كافة وليس للعرب خاصة، ونموذجها في "بانت سعاد" قوله:

وقلْتُ خلُّوا طريقِي لا أبا لكم
فكلُّ ما قدَّر الرحمنُ مفْعُـــوْلُ
كلُّ ابنِ أنْثَى وإن طالت سلامته
يـومًا عـلى آلة حـدباءِ محمولُ

وبناء على ما سبق، يمكن القول: إننا بصدد ما يشبه السرد بالشعر لشيء من السيرة النبوية، يلتقي فيه الواقعي مع المتخيل الفني في علاقة بين الاثنين تقوم على التكثيف والإجمال الفني بإزاء تفصيل لما هو تاريخي.. وقد جاء كل ذلك تحت عباءة دلالية وثيقة الصلة بتجربة الشاعر الشعورية وبحياته، ألا وهي عباءة الاعتذار، وقد أتت النتيجة المنتظرة متوقعة مع شخصية نبي عُرف عنه الحلم والعفو؛ إذ أمنه رسول الله ﷺ وعفا عنه، وأضحى مؤمنًا صحابيًّا جليلاً رضي الله عنه وعن كل الصحب الكرام. ■

(*) كلية الألسن، جامعة عين شمس / مصر.

hiragate.com

قضايا فكرية

محمد جمال المغربي*

الأمراض المادية توجع بدن الإنسان، وأقصى ما تفعله به تقضي على حياته الفانية، أما الأمراض الروحية فلا تقف عند إخماد حياة القلب في هذه الدنيا الزائلة فحسب، بل تمتد إلى تدمير حياته الأبدية أيضًا.

الموازين

الاستشراق أم الاستغراب؟

لقد أسهمت الحضارة الإسلامية منذ نشأتها إسهامًا كبيرًا في توسيع دائرة العلم والمعرفة والطب والفلسفة.. مما حوّلها في وقت قصير إلى وجهة يُقبل عليها الراغبون، ومنارة تنير درب التائهين. ولكن كما تقدّم الزمن انحسرت هذه الحضارة، ودخلت مرحلة الانحطاط والتردي العلمي، واستمر هذا الهبوط إلى حد الوقوع في مستنقع الجهل والتخلف أواخر القرن التاسع عشر

والقرن العشرين، في الوقت الذي استطاع فيه أبناء الحضارات الأخرى -ولا سيما الغرب- التخلص من السيطرة الكهنوتية التي كانت السبب في ابتعادهم عن مناط العلم والمعرفة.

لقد استطاع عالم الغرب تغيير فلسفته القديمة، حيث رفع راية الحرية، ووقف ضد استغلال مواهب أبنائه وتنميتها، كما حث على توفير المناخ المناسب لهم للإبداع؛ هادفًا الوصول إلى نهضة علمية غير مسبوقة. وقد نجح في ذلك بعد أن قام المفكرون والفلاسفة الغربيون بترسيخ هذه العقيدة في نفوس شعوبهم؛ العقيدة التي تفرق بين المادة والمعنى، والعقل والقلب، حتى اقتنع الناس باستحالة الجمع بين تلك الأضداد.

على الضفة الثانية لم يستطع المسلمون تطوير أنفسهم، واكتفوا بالحديث عن حضارتهم القديمة العظيمة والتباهي بها فقط، ناسين -أو متناسين- حالتهم المأساوية من انتشار الجهل في أراضيهم، وهجرة علمائهم ومفكريهم من المسلمين إلى بلدان الغرب، الذي رحب بهم واحتضنهم بغية الاستفادة من علمهم دون تعصب أيدلوجي أو عرقي. أما نحن فبدلاً من أن نخوض بحر العلم مع علماء الغرب مستفيدين منهم، من أجل الوصول إلى برّ حضارتنا من جديد، انشغلنا بأفكار متواترة عدائية ضدهم، لا تغني ولا تسمن من جوع.

وفي الوقت الذي انشغلنا بالمفاهيم العدائية السابقة، قام الغربيون بتجهيز نخبة من العلماء وإرسالهم إلى بلادنا، مهمتهم استشراق الشرق؛ بمعنى استكشاف ثقافتنا ودراستها عن كثب، ومعرفة أنماط عيشنا وطرق تفكيرنا.. وقد أطلق فيما بعد على كل هذه الدراسات "علم الاستشراق".

تعريف الاستشراق ودوافعه

الاستشراق حركة غربية تهدف استكشاف وتصوير

ليس معنى الاستغراب فقدان هويتنا وصبغتنا الإسلامية وذوباننا في خليط الحضارة الغربية، بل إن استغرابنا هدفه العودة إلى مكانتنا المفقودة وحضارتنا المسلوبة، وإحياء تراثنا المدفون.

ودراسة الثقافة والتراث العربي والإسلامي دراسة علمية عميقة، من وجهة نظر غربية عن طريق علماء ومفكرين غير مسلمين، يقومون بدراسات أكاديمية تدوَّن فيها مختلف جوانب حياة المسلمين من ثقافة وحضارة وتاريخ وعادات وتقاليد ولغة وأدب وفلسفة وفنون وغيرها.

وقد اختلف المؤرخون حول بداية ظهور الاستشراق؛ فمنهم من رأى أن بدايته من قديم الزمن حتى من قبل مجيء الإسلام.

ومنهم من رأى أنه جاء ممهدًا للاستعمار بعد فشل الحروب الصليبية، رغبة منهم في السيطرة على بلاد المسلمين، مما دفعهم إلى إرسال المستشرقين بغية معرفة وكشف وتصوير كل الجوانب الحياتية للمسلمين، ومعرفة نقاط ضعفهم وقوتهم، واستغلال نقاط الضعف لصالحهم.

ومنهم من رأى مجيئه بصحبة الحقبة والحملات الاستعمارية، مثل العلماء الذين اصطحبهم معه نابليون بونابرت في الحملة الفرنسية على مصر.

دوافع الاستشراق

ارتأى البعض تثمين دوافع الاستشراق على أساس أنها حركة أخذت الطابع العلمي المجرد عن الأهواء والأغراض الخبيثة، بمعنى أنها غير مسيَّسة. وارتأى البعض الآخر تنقيمها واتهامها بأنها حركة لم يكن الهدف منها المثاقفة من خلال أُطرٍ علميةٍ عبر مؤتمرات دولية هدفها الجمع بين ثقافة المسلمين والغربيين، وإنما كان غرضها الهيمنة والسيطرة على مقدرات

hiragate.com

الشعوب العربية والإسلامية.

وقد رأى مفكرون آخرون، أن دوافع الاستشراق تنوعت بين دوافع استعمارية، ومثاله الهزيمة في الحروب الصليبية واللجوء إلى حيلة المستشرقين، لمعرفة نقاط الضعف عند الشرق.. ودوافع أيديولوجية وسياسية واقتصادية، تتمثل في ارتباط المستشرقين بمصالح دولهم، وأن يظل المسلمون في إطار التبعية المعرفية لبلادهم.

أيًا كانت أسباب الاستشراق وأهدافه ودوافعه، سواء أكانت حسنة النية أو سيئة النية، فمن المؤكد أن إيجادها يهدف لإعلاء وخدمة بلادهم، والاستفادة من ثقافات وحضارات وعلوم غريبة مختلفة عنهم.. لذلك أرى أن الاستشراق قد يضيف لنا ولا ينتقص منا إذا قمنا بترجمة أفضل لما عندنا من علوم وأدب من العربية إلى اللغات الغربية، ليتأثروا منا ومن ثقافتنا بطريقة سليمة بعيدة عن مغالطات وأهواء المستشرقين.

وفي ظل الانفتاح العلمي للشعوب والعولمة، وشبكات التواصل الاجتماعي والإنترنت، أصبح العالم قرية صغيرة، وبالتالي أصبحت الشعوب تتواصل مع بعضها، وتتبادل الثقافات والعلوم فيما بينهم. ومن هنا ظهرت الدعوات من المفكرين المسلمين إلى الاستغراب وإنشاء ما يسمى "بعلم الاستغراب"، الذي نتج بعد مخاض طويل ليخرج من رحم الاستشراق. وكان أول من اقترح تأسيس علم الاستغراب هو الفيلسوف المصري الدكتور حسن حنفي في كتابه "مقدمة في علم الاستغراب"، بالإضافة إلى المشروع الذي قدمه الدكتور السيد محمد الشاهد إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، والدكتور علي إبراهيم النملة بكتابه "الاستغراب: المنهج في فهمنا الغرب".

لذلك سعت النخب الفكرية التنويرية العربية والإسلامية، إلى مزيد من الانفتاح على الأيديولوجيات الغربية؛ لكي تتداخل ثقافتنا ومعارفنا مع زخم ثقافتهم وتندمج معهم.

تعريف الاستغراب

سمّاه البعضُ بـ"علم الاستغراب" وإن كانت هذه التسمية بالغت بتوصيفه بالعلم، فهو أقرب للفكر، وهو مضاد للاستشراق بمعنى أنه فكرٌ يهتم بدراسة ثقافة وحضارة وعلوم الغرب دراسة علمية بدقة متناهية، وباستخدام المنهج العلمي بهدف تحقيق تواصل وتفاهم بين العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي.

إذن هو تقريبًا نفس تعريف الاستشراق، وطالما أن الاستشراق قد استُخدم لخدمة مصالح الغرب، وساهم في تقدمه، فَلِم لا نطبّق الاستغرابَ لنواجه به الاستشراق بما يخدم مصالحنا، ويخفف من هيمنة الغرب علينا من ناحية، ويساهم في تقدمنا ونهضتنا العلمية من ناحية أخرى؟

هل الاستغراب يعادي الغرب؟

قد يظن البعض أن الدعوة للاستغراب، هي دعوة للانتقام من الغرب ومعاداته ومحاسبته على حرماننا من موروثنا الحضاري طوال القرون السابقة بسبب الاستعمار، ولكن هذا الظن غير صحيح وغير منطقي. فالدعوة للاستغراب هي دعوة لجلب ما فاتنا من تأخر معرفي طوال السنين السابقة، لكي نستعيد عافيتنا وحضارتنا الغائبة، فلا يعيب الشعوب العربية والإسلامية، السعي لمعرفة ودراسة وتصوير النواحي الثقافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، بهدف الانفتاح على العالم الغربي، ومن ثمّ نُسخّر لها كل إمكانياتنا ومواردنا حتى تعود حضارتنا وعصرنا الذهبي من جديد، بشرط الحفاظ على الخصوصية العربية والإسلامية الموروثة.

لا بد أن نندمج -بشرط التمسك بثوابتنا- مع هذا العالم المعرفي، ومع هذه الحضارة الغربية، واستجلاب النظريات والمعارف الجديدة عن طريق البحث العلمي، ويجب أن نتخلى عن فكرة "المؤامرة"، بمعني أن الغربَ يحيك لنا المؤامرات ويصدّر لنا المشاكل والعادات السيئة؛ لأن هذا من شأنه افتعال

hiragate.com

hiragate.com

قطيعة مع الغرب. ونحن حاليًا في حاجة للتعاون معه بعد أن مرَّت الأمةُ بقرون من الجهل والتخلف، في حين أن الغربَ سبقنا وتقدم علينا كثيرًا.. لذلك وجب علينا أن نأخذ الإيجابي والنافع منهم لنستعيد نشاطنا وقوتنا التي فقدناها من زمان. من ثم وجب علينا تعلُّم جميع أنواع العلوم منهم قدر المستطاع، لكي نعود إلى حظيرة الإسلام السمح، التي خرجنا منها منذ قرون.

كيفية تطبيق الاستغراب

يجب أن يكون علمًا موضوعيًّا محايدًا نزيهًا ومنصفًا، لا يتغيّا السيطرة ولا يسعى إلى تشويه الثقافات الأخرى، ويجب تحويل الحضارة الغربية من دراسة موضوع إلى موضوع دراسة، وهذا ما أكده الدكتور حسن حنفي في كتابه "مقدمة في علم الاستغراب".

ويجب أن يواجه الاستغراب آفة خطيرة تسمى "التغريب" الذي فرضه علينا الاستعمار لكي نكون دومًا في معيته، متحكمًا في ثقافتنا التي أراد تشويهها وجعلها تذوب في ثقافته.

ويجب أن تمتلك الشعوب العربية والإسلامية مؤسسات ومنتديات، مثل التي أعدَّها الغرب للمستشرقين لتساعدهم في دراسة وبحث الحضارة العربية الإسلامية، مثل "معهد اللغات والحضارات الشرقية" في باريس الذي تأسس سنة ١٦٦٩م، و"مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية" في لندن التي تأسست عام ١٩١٦م. كما يجب أن تكون مؤسسات متخصصة في قضايا الغرب وتفحيصها وتدقيقها بجدية، ويجب أن يتولى هذا الأمر نخبة فكرية متنورة تدرك معنى الانفتاح الحضاري على الشعوب المختلفة، وترعى هذه النخب تلك المؤسسات التنويرية المتخصصة في استغراب الغرب.

ويجب أن يتم تطبيق الاستغراب بما يتناسب مع خصوصياتنا، مع حماية الثقافة الموروثة عن حضارتنا من الانقراض، والقضاء على الأسطورة المترسخة في عقيدة الشعوب العربية بأن الإنسان الغربي كائنٌ أسطوري لا مقدرة لنا على مجاراته.

يجب أن تتم دراسة النظريات الغربية المتقدمة والجديدة بفكرٍ مختلف، بمعنى آخر يجب على النخب العربية تتبع أصولها من خلال البحث العلمي الدقيق؛ لإثبات أن أصل هذه النظريات عربي إسلامي إن كانت كذلك، لكي نجعل الغرب ينظر إلينا نظرة تخلو من الدونية والتعالي، وتكون علاقة المثاقفة وتبادل المعلومات بيننا علاقة الند للند.

يجب مجابهة الاستشراق بالاستغراب، وأن ننتقل من موقع الدفاع دومًا عن ثقافتنا وعاداتنا المتهمة من قبل المستشرقين باتهامات داحضة، ومغالطاتٍ شككت عقولنا في علومنا وبنيتنا الراسخة المتجذرة في التاريخ في ظل انشغالنا بتقدم الغرب الأسطوري.

يجب أن ننتقل من موقع الدفاع عن أنفسنا والانشغال دائمًا بالرد على الغرب، إلى موقع المبادرة ودراسة ثقافتهم ومشاكلهم، ومن ثم عرض حلولٍ لمشكلاتهم من منظورنا الإسلامي، وهي دعوة غير مباشرة نوجّهها لهم للتعرف على الإسلام ودراسته.

يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند تطبيق الاستغراب، أن يكون تطبيقًا أكاديميًّا مبنيًّا على منهج علمي راسخ، يتعامل مع المحتوى الحضاري والثقافي الغربي تعاملاً بعيدًا عن التعصب الديني، والأنا الفكري والانحياز للثقافة الخاصة بنا، بمعنى أن يكون تعاملاً من أجل مثاقفة متبادلة، برؤية حضارية منفتحة ومنصفة.

في النهاية، نرى أنه لا مناص من تطبيق الاستغراب وإرسال المستغربين إلى الغرب، للاستفادة من علومه وآدابه وثقافته بما يخدم ديننا وبلادنا، وليس معنى استغرابنا هو فقدان هويتنا وصبغتنا الإسلامية، وذوباننا في خليط الحضارة الغربية، بل نزعم أن استغرابنا هدفه هو عودتنا إلى مكانتنا المفقودة وحضارتنا المسلوبة، وإحياء تراثنا المدفون. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

بشرى البداوي فونتير*

البعد الروحي في البناء الحضاري

في خضم الصراع من أجل إثبات الذات، وفي معترك المواجهة الفكرية المفتوحة بين مختلف تيارات الفكر الإنساني المعاصر، وفي قلب الأحداث المؤطرة لسياقات الزمن، يرتفع صوت شجي ينادي بأعلى قوته إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي على أسس جديدة، ومنظور جديد، ووفق منهاج جديد؛ من أجل انبعاث الموروث الحضاري الإسلامي، ومعانقة الواقع المعاصر بكل أعبائه وأثقاله، بروح إسلامية متجددة قادرة على الحوار والتواصل واستيعاب الآخر، والتأثير فيه والتفاعل معه دون إقصاء أو إلغاء. إن هذا الصوت هو صوت الأستاذ المفكر والمربي، الرائد والمرجع، الرجل الأمة المتحرق لتأسيس الذات الإسلامية؛ الأستاذ محمد فتح الله كولن.

إن الأستاذ فتح الله كولن ليس مجرد مفكر، بل هو مرجع فكري نهضوي جمع بين الحركة والتأصيل. إنه صاحب مشروع وبرنامج عمل؛ من أجل بناء الشخصية المسلمة على أسس جديدة، ووفق رؤية ومنظومة فكرية وحركية متكاملة، قوامها الانطلاق من الذات والانفتاح على الآخر دون مركبات نقص أو إسقاطات.. ولذلك فإن كتابه "ونحن نبني حضارتنا"، إذا تأملنا في مضامينه وحلّلنا أبعاده، نجد أنفسنا أمام سؤالين، الأول: ما هي عناصر الأطروحة التي يؤسس لها الأستاذ فتح الله كولن من خلال

مؤلفه "ونحن نبني حضارتنا"؟ والثاني: ما هي مضامين الرسالة التي يسعى إلى تبليغها من خلال هذا الكتاب؟

ومن أجل الإجابة على هذين السؤالين، لا بد من التذكير بمعطيين منهجيين اثنين، الأول: أن المتأمل في مضامين هذا الكتاب، وفي بنائه المفاهيمي، يحيلنا على كثير من الآراء والأفكار الواردة في محاضراته وتنظيراته المنبثة في ثنايا مؤلفات أخرى، ونخص بالذكر منها مؤلفه "طرق الإرشاد في الفكر والحياة"، و"الموازين أو أضواء على الطريق" أو "ونحن نقيم صرح الروح". وأما المعطى الثاني: أن الخيط الناظم لهذه المنظومة الفكرية التي أصل لها الأستاذ كولن، يكمن في استحضار البعد الروحي أو الروحاني في كل الأطروحات الفكرية التي يؤسس لها.

إن هذا البعد ذا الدلالة القلبية والإيمانية الخالصة عند الأستاذ فتح الله كولن، ليس مقتصرًا على تنظيراته الفكرية، وإنما نجد له امتدادًا في مشروع الخدمة الإيمانية التي تمثل جزءًا هامًّا من التجسيد الفعلي لدعوته وإرشاداته ومواعظه ومناشداته ومشروعه.

يقول كولن في سياق من سياقات الكتاب، وهو أول سياق دعوي ينتقل فيه من لغة التحليل والنقد والتشخيص والتوصيف إلى لغة الدعوة والفعل: "والأمر الوحيد الذي ينبغي أن نعمله اليوم، هو أن نهرع إلى أخذ موقعنا في التوازن الدولي، بالشعور الجاد بالمسؤولية، وبهويتنا الذاتية ومن غير هدر للزمن. فإن تلكأنا في تعيين هذا الهدف، فقد نعجز عن إدراك الغد، بله التقدم والتطور. فنحن اليوم أمام أحد خيارين؛ إما الكفاح المصيري في الهمة والذي يؤدي بنا إلى "الانبعاث"، وإما الخلود إلى الراحة والاسترخاء الذي يعني الاستسلام للموت الأبدي".

إن هذا الخطاب الذي يؤصل له انطلاقًا من المرجعية القرآنية واستقراء علوم العصر، هو خطاب مفصلي يجعل الإنسان المسلم اليوم في مفترق طرق بين خيارين لا ثالث لهما؛ إما النهوض أو السقوط، إما الحياة أو الموت. ومن أجل الحياة يجعل الأستاذ كولن لغة خطابه لغة المستقبل، ولغة التفاعل بين حقائق الإيمان وحقائق العصر، بين البعد العقدي/الروحي والبعد العقلي المعرفي، إنه يعتبر "أن من إحدى الأمور في بناء الجيل الحاضر، هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وحقائق

من إحدى الأمور في بناء الجيل الحاضر، هو تيسير تنقلهم بين عوالمهم الداخلية وحقائق الوجود، بتحفيز عزم التفكر المنظم لديهم، وتحبيب الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم، بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح.

الوجود، بتحفيز عزم التفكر المنظم لديهم، وتحبيب الإيمان والتعلم والتمحيص والتفكير إليهم، بتدريبهم على مطالعة الآفاق والأنفس ككتاب مفتوح".

ولعل عنصرًا من عناصر أطروحة الأستاذ فتح الله كولن التي يسجلها هذا الكتاب، تكمن في تلك الحقيقة التي اعتبرها حقيقة فريدة تتلقاها روح الإنسان من ثلاثة منابع أساسية، هي الإيمان، والمعرفة، وتعلق القلب بالله وهي آية المحبة.

وهنا نقف عند أصل من أهم أصول ثقافة كولن، ومرجعية من أهم مرجعياته، ألا وهي المرجعية الصوفية الرقيقة ذات البعد التربوي والنفسي والعرفاني؛ إذ نجده يقول: "إن معاني الإيمان والمعرفة والمحبة توحد بين الإنسان والكون"، وهي خلاصة تتضمن معاني غزيرة ودلالات عميقة، تترجم رؤية فلسفية لعلاقة الإنسان بالكون، تنهل من أصول إيمانية محددة.

أما العنصر الآخر من عناصر هذه الأطروحة، فيكمن في جعل البناء الحضاري المنشود -إلى جانب البعد الروحي- قائمًا على مفهوم الإحياء والانبعاث؛ إنه إحياء للأمة وانبعاث جديد لها. وتلك عناصر تذكرنا بالفكر النهضوي المؤسس للفكر الإسلامي في مستهل القرن العشرين، والذي ظلت أسئلته وأطروحاته مستمرة الحضور في عقل وقلب كل مفكر مسلم تحت ضغط الواقع وإكراهاته. ومن هؤلاء، الأستاذ فتح الله كولن الذي يجعل تحديد إطار فهم الحضارة المنشودة، وإعادة النظر في كنهها، والوقوف عند معنى ومحتوى ماضينا، وفوضوية الواقع الحالي وما يتحلى به من غموض، وتحديد المعالجات المتصورة للغد المستقبل.. يجعل من هذه المقدمات منطلقًا منهجيًّا أساسيًّا لمشروع البناء الحضاري الذي يدعو له ويدافع من أجله. وهو من هذا المنطلق يعتبر

hiragate.com

أن أساس البناء الحضاري يكمن في ثلاثة مفاتيح رئيسة:

١- إعادة بناء الذات من جديد، وشرطه "أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، المبرمجة على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتبع -بالضرورة- سبيلاً يمكّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي، ونظامنا الاعتقادي الذاتي، وفلسفتنا الذاتية في الحياة على نسيجنا الحضاري الخاص". إنها دعوة الأصول.

٢- تكوين الإنسان المؤهل، وهو في هذا السياق يعتبر أن المسلك الذي نسلكه اليوم خاطئًا؛ لأنه يقوم على استكشاف الطرق السهلة والرخيصة، للحصول على نعم الحضارة ووسائل تقاسمها، في حين أن الشعوب التي تقدمت إنما تبني كل شيء على الإنسان والأخلاق والتعليم والثقافة.

واستنادًا إلى مقاربة علمية شمولية تتوسل بالأنثربولوجيا والتاريخ القديم والجغرافية وتاريخ النجاحات والإخفاقات في حياة الشعوب، يعتبر الأستاذ كولن أن أقوى أسس البناء الحضاري يستلزم إقامة دولة حرة ومستقلة، واستثمار أثمن لرؤوس أموالها، ألا وهو الزمن.

٣- استثمار الثقافة الذاتية للأمة وهو مفتاح للبناء، يقوم على تثمين المادة الثقافية الذاتية الخصبة التي بها يصنع تاريخ الشعوب. والأستاذ فتح الله كولن يعتبر أن صناعة التاريخ الثقافي للشعوب والأمم ليس عملاً فجائيًا وبدون مقدمات، ولكنه مسار طويل، يقول: "إن تلك الحضارات التي كانت تذهل العقول وتبهر العيون بغناها الثقافي، لم تظهر في روما وأثينا ومصر أو بابل فجأة من غير مقدمات، إن الثقافة في كل مكان إنما ولدت بعد حضانة طويلة في عالم المشاعر والأفكار للأفراد".

وفي خلاصة جامعة، فإن مفاتيح البناء الحضاري تروم الانطلاق من الذات من أجل إحيائها؛ لأن هوية الشعوب -كأساس للبناء الحضاري- لا يمكن أن تنسخ من تجارب الآخرين. إن الأستاذ فتح الله كولن يشدد على الذات أولاً، ثم التفاعل ثانيًا. ولذلك يعتبر أن استنهاض الهمم من منطلق إيماني، يعطي للبعد الروحي مكانة خاصة، من شأنه أن يجعل الإنسان المسلم صاحب قدرة على امتلاك أدوات العصر من أجل تحقيق رسالة الله في الأرض.

وأما الرسالة في ضوء هذه العناصر التي يسعى إلى تبليغها، فيمكن أن يُختزل في عبارة واحدة هي "رسالة الإحياء"؛ الإحياء الحضاري القائم على استخلاص العبر من تجارب الأمم والشعوب. وهو في توصيف محتويات هذه الرسالة، يقدم تحليلاً صافيًا -عبر صفحات الكتاب- للواقع المؤلم الذي تعيشه الشعوب، ويحدد معالم الطريق السالك إلى النجاح الدائم دون منزلقات، متمثلة في زرع روح الأمة في كل مكان -من خلال بناء جيل ذهبي- وهي القيم الإيمانية التي قادت أبناء مشروع "الخدمة" في إنجاز مشروعهم من منطلق إيمانهم وعشقهم وحماسهم.

ونرى أن جزءًا لا يتجزأ من الكتاب، هو عبارة عن خطاب حركي من أجل الدعوة والتحفيز والحث وشحذ الهمم، ورسم معالم الطريق السالك الذي يسلكه الربانيون المحمديون، أو "رجال القلوب المتحفزون بالإيمان"، أو "المحتسبون"، أو "الأبناء المضحّون"، أو "أبناء الخدمة"، أو "أبناء الخلود"، أو غيرهم ممن يتفوقون على المسافات ويتجاوزون الزمن. يقول الأستاذ كولن: "إن قضيتنا الكبرى التي تفوق كل القضايا، هي إلهاب جمرة "الرغبة في إحياء الآخرين" في أرواح أفراد الأمة مرة أخرى، وتنقية الأفكار الغريبة المندسة والحائلة بين الأمة وأهدافها السامية".

ونعتقد أن هذا المؤلف المرجع، ليس فقط مادة من المواد الفكرية للأستاذ فتح الله كولن، بقدر ما هو خطاب دعوة حركية من أجل الاستنهاض الحضاري المأمول في كل ربوع العالم الإسلامي، بل وحتى خارج هذه الربوع.

إن الأستاذ كولن من خلال مضامين هذا الكتاب، ومن خلال مقاربته المنهجية وقراءته العميقة والعالمة لواقع العصر بكل تشكلاته وتعقيداته، أسس لمنطلقات إعادة تشكيل الذات الحضارية الإسلامية، جاعلاً إياها المبدأ الأساس في البناء الحضاري المنشود، المستند إلى روح الأمة وعقيدتها الإيمانية وثقافتها الذاتية الأصيلة. ■

(*) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط / المغرب.

المرجع

(١) ونحن نبني حضارتنا، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١١.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

مظهر الإنسان وجوهره

يعدّ "إريك فروم" (Erich Fromm) (١٩٠٠-١٩٨٠م)، صاحب الثورة الثالثة في علم النفس بمدرسته المعروفة بالتحليل النفسي الإنساني، وكان عالمًا نفسانيًّا اجتماعيًّا شديد الاهتمام بمحاولة فهم المجتمع المعاصر وتطوره وأزماته، لذا ففي أغلب كتاباته اعتنى بدراسة العوامل الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة في نمو الشخصية الإنسانية وسلوكياتها، وفي تحولات المجتمعات

الصناعية الحديثة، وانتقد آليات التحليل النفسي التقليدي؛ لإغفالها الجانب الاجتماعي واعتمادها على التكوين الغريزي للبشر. وكان توفيق "فروم" بين الطرح الماركسي والطرح الفرويدي ومحاولة تجاوزهما، يحمل في طياته نفحة نقدية إبيستيمولوجية. وهو ما يجعل الإنسان غير مشروط فسيولوجيًّا بيولوجيًّا كما نوه فرويد، وغير مشروط اقتصاديًّا كما فعل ماركس، بل إنه إنسان مشروط أنثروبولوجيا اجتماعيًّا ونفسيًّا، وطبيعته لا تنحصر في حيز رد الفعل على المستوى السيكولوجي أو الاقتصادي، بل إنها طبيعة مؤثرة في العوامل بقدر ما تتأثر هي بالمقدار ذاته.

فطبيعة الإنسان عند "فروم"، مزيج من الجوانب البيولوجية والنفسية والاقتصادية، ومن الجوانب الاجتماعية والحضارية والأنثروبولوجية وجب اجتماعها وتكاملها لبلوغ هذه الطبيعة ومعرفتها، واستكناه الدوافع الأساسية للسلوك البشري، ودعا إلى مقاربة متعددة التخصصات يحضر فيها النفسي متعالقًا مع السوسيولوجي والأنثربولوجي والتاريخي.

فن الوجود

يري "فروم" أنه لكي يجعل الإنسان لوجوده معنى، ولشخصيته كينونة، عليه أن يعلِّم نفسه التركيز والتأمل والإنتاجية، ويهتم بجوهر الأمور لا بمظاهرها.. كما يحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة مثل؛ على من أعتمد؟ ما هي مخاوفي الكبرى؟ ماذا كان مقدَّرًا لي عندما خُلقت؟ ماذا كانت أهدافي وكيف تغيرت؟ ماذا كانت العقبات في طريقي عندما اتخذت طريقًا خاطئة؟ ما هي الجهود التي بذلتها لأصحح الخطأ وأعود إلى الطريق السليمة؟ من أنا الآن؟ من سأكون إذا اتخذت دائمًا القرارات الصائبة وتجنبت الأخطاء المصيرية؟ من هو الشخص الذي كنت أريد أن أكونه في الماضي والحاضر والمستقبل؟ ما هي الصورة التي رسمتها لنفسي؟ ما هي الصورة التي أرغب أن يراها الآخرون عني؟ أين هي التناقضات بين الصورتين؟ ما هي التناقضات بين الصورتين وبين ما أشعر أنه الحقيقة؟ من هو الشخص الذي سأكونه إذا واصلت العيش كما أفعل الآن؟ ما هي الظروف المسئولة عن التطور الذي تعرضت له؟ ما هي البدائل أمامي لتطور اهتمامي؟ ماذا يجب أن أفعل؟

إن معنى الحياة وهدفها -برأي فروم- مرتبطان بالقيم الإنسانية التي يجب التحلي بها، وبالحاجات الإنسانية الخمس "الحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى الهوية، والحاجة إلى التجاوز والسمو، والحاجة إلى الارتباط بالجذور"، لكن الأكثر صعوبة هو كيفية التمييز بين الأصيل وبين الزائف في هذه الاحتياجات والمعاني. ويمكن -على سبيل المثال- ملاحظة القدر الهائل من المنتجات غالية الثمن، وهي في الحقيقة عديمة القيمة، والعكس صحيح أيضًا، ويمكن ملاحظة مجموعة كبيرة من المتطلبات والاحتياجات الفكرية والمادية، ولكنها مهملة ولا يُلتفت إليها وتكاد تكون مسألة الوجود عنده هي التمييز بين الأصيل وبين المزيف. وتختصر عبارة "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" نظرة "فروم" للإنسان، وهي عبارة عزيزة عليه وكثيرًا ما ترد في كلامه، وهو يؤكد على توق الإنسان الدائم إلى "المعنى"؛ معنى حياته ووجوده، معنى كونه إنسانًا.. هذا التوق الذي عبر عنه الإنسان منذ القدم في شتى مناشط حياته، ويعبر عنه كذلك الإنسان الحديث، الذي رغم توفره على كل الوسائل التقنية المادية لا يزال يبحث عن المعنى، رغم تشوه هذا المعنى في وعيه فظهر توقه بشكل سلبي، ظهر بشعور الإحباط وفقدان الأمل والعزلة والهروب إلى الإدمان.

كما يعتقد "فروم" أن إحدى عقبات الوجود هي التفاهة، وأسوأ التفاهات هي الحديث التافه؛ لأنها -برأيه- تشكل الإنسان على نحو ضحل وضعيف يتعلق بظاهر الأمور فحسب، وليس بأسبابها أو بما يتضمنه "جوهرها".

نقد التجربة الحداثية ومجتمع الاستهلاك

ألقت مدرسة "فرانكفورت" الألمانية -التي انتمى إليها "فروم" ومثّل الجانب النقدي للحضارة المعاصرة في شقها النفسي- على عاتقها نقد التجربة الحداثية، ومجتمع الاستهلاك، وماكينة الرأسمالية، وأسلوب

hiragate.com

التملك المادي. وذلك انطلاقًا من السؤال: هل تقود الوفرة والرفاهية الزائدة والفيضان عن الحد، إلى سعادة المرء، أم هي سبيل الملل والخمول؟ تؤكد هذه المدرسة على أن "الناس ليسوا سعداء"، ليس لأنهم لا يملكون الأشياء، بل لأن "الملل" يخترق حياتهم ولأنهم بعيدون عن الطبيعة وعن بقية البشر. فعندما لا يعرف المرء كيف وماذا يفعل، ومن أين يبدأ، فقد أصبح لا يملك في نفسه الدوافع، لكي يفعل ما هو ذو قيمة، أو ينتج شيئًا يخلق المعنى لديه. وعندئذ يشعر بالخواء، ومضغوطًا كأنه يحمل أثقالاً.. يقول فروم: "إن الملل والخواء الشخصي، هو العذاب والمرض النفسي الخطير".

يشير "فروم" لأحد مسببات الملل الحديث بأن الفعل لأجل المكافأة أو العقاب، أو ردة فعل للمؤثرات الخارجية، هو أحد معالِم العصر، التي تقود إلى الملل. وتهتم سلوكياتنا الحالية بالتالي؛ إن الإنسان هو كائن رد الفعل؛ يُحدِث المرء مؤثِّرًا ثم يتم رد الفعل.. يعتقد المرء أن كل سلوك الإنسان مبني على مبدأ المكافأة والعقاب، وهذان الأخيران هما المؤثران الكبيران في حياته، ويُنتظر منه أن يسلك هذا السبيل، يعمل ما سيكافأ عليه ويترك كل ما هو معاقب عليه أو مُهدد بالعقاب عليه، لأن التهديد بالعقاب يكون كافيًا. ويتابع: "إن النشاط كرد فعل على مؤثر، أو كدفع المرء لرد الفعل على شكل مَرضي عنه، هو في الأساس خمول. ويؤكد "فروم" على أن الإنسان محكوم بدوافع ذاتية أيضًا، فهب أن جميع متطلبات المرء قد تحققت، فهل سيكون بحالة جيدة؟ يجيب: "ليس بالضرورة، فكونه ظاهريًا يمتلك كل شيء، لا يعني أنه مطمئن وسعيد.. لأنه يحتاج شيئًا آخر هو الكينونة، والحيوية، والرغبة، وحب عمل شيء ما. تلك القوة الكامنة هي المُساعدة في ولادة المقدرات والكنوز الخبيئة لدى الإنسان".

إن "شراهة الاستهلاك" هي محاولة للتحرر من الضيق الداخلي، فالفراغ مفزع، وشراهة الأكل -على سبيل المثال- ما هي إلا محاولة بائسة لطرد هذا الفراغ. والاستهلاك الكبير هو إعلان أن الإنسان فاقد لقيمته. ويخلص إلى أن الإنسان لا يبحث عن شيء في الحياة إلا عن نفسه وإثبات ذاته ككائن مطلق، لأنه -باختصار-

إن التخلص من المطلقية والاعتقاد بالتفوق العنصري، متعلق بإنشاء مجتمع يعيد للإنسان إنسانيته، ويرتبط فيه البشر برابط المحبة، وتمتد فيه جذور الأخوة والتكاتف، ويتيح للمرء التعامل مع الطبيعة بالخلق لا بالتدمير.

كائن يتجاوز المادية، ومحركاته لا يمكن أن تكون فقط فسيولوجية أو نفسية أو اجتماعية، فهناك عوامل أخرى كامنة تشكل المحرك الأساس للإنسان. فإثبات الذات لا يكمن في امتلاك شيء أو آخر لأنه ليس الهدف. فتملُّك ما يحلو لك، فلن تهدأ ولن ترتاح.. فخلاص الإنسانية وخلقها للمعنى، لا يكمن في الاستهلاك أبدًا.

معنى الحرية عند فروم

في كتابه الأول "الهروب من الحرية" (١٩٤١م) يحاول "فروم" تتبع تطور الحرية من العصور الوسطى للعصور الحديثة، وقد لاحظ أن تطور المدنية البرجوازية يرافقه نشوء عدد من التناقضات؛ فتوسيعه لمجال حريته يقع الإنسان تحت عبئها ويصبح أكثر اغترابًا، سواء عن نتاج عمله أو عن الآخرين أو عن نفسه، مما يولد لديه لامبالاة وعدم اكتراث بالحياة، وفقدًا لفرديته الشخصية وتفرده، من حيث هو كائن بشري. وهكذا ينظر "فروم" إلى حرية الإنسان على أنها عملية مركبة ذات جانبين، وأنها تتمتع بحرية سلبية تحرر من الوجود الذي يستعبد الإنسان، وحرية إيجابية لأجل صيرورة الإنسان إنسانًا حقيقيًا، وبين الأمرين هوّة مطلقة.. وهو يفترض أن تطور الإنسان يسير في طريق ازدياد، لكن كثيرًا من الناس لا يملكون القدرة على التحكم بحريتهم.. وثمة خوف من الحرية التي تم الحصول عليها؛ فبنية الأفراد مشروطة بالنزاع الحتمي بين النزوع إلى الحرية والخوف منها. كما يرى أن الاضطراب النفسي المعاصر، هو نتيجة هروب الإنسان من الحرية، وإلقاء نفسه في علاقات خضوع وامتثال للغير. ويعزو هذه الاضطرابات إلى عوامل ثقافية واجتماعية، وإلى مساوئ النظام الرأسمالي الذي يحول الإنسان إلى آلة، إضافة إلى الأثر السلبي

hiragate.com

للمجتمع الاستهلاكي المعاصر. أما الحرية الإيجابية، فإنها تتحقق من خلال العمل والمحبة، ومن خلال قدرة الإنسان على تحقيق ذاته. ومن هنا فقد دعا إلى بناء مجتمع يستند إلى احترام الوجود الإنساني.

الطباع والأمزجة

يميز "فروم" بين نمطين من الطباع، التوجه غير الإنتاجي والتوجه الإنتاجي، ويندرج تحت الأول ما يلي:

١- توجه الأخذ: فيه يشعر الشخص بأن "مصدر كل خير" هو خارجه، وأن السبيل الوحيد للحصول على ما يريد -سواء كان مادة أم عاطفة أم معرفة أم لذة- أن يتلقفه من الآخرين. وفي هذا التوجه تكاد تكون مشكلة الحب حصرًا هي "أن يكون محبوبًا لا أن يُحب".

٢- التوجه الاستغلالي: كما في سابقه، يشعر الشخص بأن مصدر كل خير هو في الخارج، لكن النمط الاستغلالي "لا يتوقع أن يتلقى الأشياء من الآخرين بوصفها هبات، بل أن يسلبها من الآخرين بخبث وقوة وحتى في مجال الحب والعاطفة".

٣- التوجه الادخاري: يجعل الناس ضعيفي الإيمان بأي شيء جديد قد يحصلون عليه من العالم الخارجي، ويقوم أمنهم على الادخار والتوفير، ويعتقدون أن الإنفاق تهديد.

٤- التوجه التسويقي: يركز "فروم" على هذا الطبع، لأنه يدخل في صلب نقده لأسس المجتمع الرأسمالي الحديث، ومحدداته التي تخلق هذا الطبع التسويقي للسلع والخدمات والأشخاص على حد سواء. فلا ينبغي أن ينظر المرء لنفسه بوصفه "سلعة نمطية" ويروج لها، بل بوصفه ذاتًا وكينونة مرنة ومنتجة، كي لا يفقد الإنسان تقديره لذاته فيستمده من تقدير الآخرين له، الذين يستمدون بدورهم تقديرهم لذاتهم من غيرهم وفق متطلبات السوق والتسويق. بالإضافة إلى هذا، يكون الشخص قلقًا دائمًا من خسارة تقدير الآخرين له، وخائفًا من أي هفوة قد تسقطه من الدرجة التي احتلها، بينما الإنسان الناضج والإنتاجي يستمد إحساسه بالكرامة من خبرته أنه الفاعل المتحد مع قدراته.

أما التوجه الإنتاجي: فيشير إلى موقف أساس، وطريقة اتصال في مجالات الخبرة البشرية، وتشمل استجابات المرء العقلية والانفعالية والحسية للآخرين ولنفسه وللأشياء.. وكلمة "الإنتاجية" مرتبطة بالإبداع ولا سيما الإبداع الفني. والإنتاجية ليست مرادفة للنشاط؛ فقد يكون النشاط غير إنتاجي مثل نشاط الشخص المُنَوَّم مغناطيسيًا.. ففي المفهوم الإنتاجي، نحن معنيون بطريقة استجابة المرء وتوجهه نحو الآخرين ونحو نفسه في سياق العيش، نحن معنيون بقيم الإنسان لا بنجاحه.. واستطاعة الإنسان الاستفادة الإنتاجية من قدراته هي فعاليته، وعدم استطاعته هو عجزه.

بحث في سيكولوجية الأخلاق

البحث في المعايير المتعلقة بما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله يسمى "فلسفة الأخلاق"، وهي إذ تحدد لنا كيف علينا أن نتصرف بوصفنا قوى فاعلة تتخذ -لا محالة- شكل علم معياري. ولا بد لفلسفة الأخلاق -كذلك- من أن تدرس ما يمكن أن نفعله لتلبية مطالب الالتزام، وهي معنية بالمسؤولية الإنسانية، وليست المسؤولية -ببسيط العبارة- نتيجة للحرية، بل العكس؛ فأن يكون المرء مسئولاً عن الآخرين وعن نفسه، هو الأساس لما تدعوه "الحرية" بالمعنى الأخلاقي.

ولعل أكبر تحديين تواجههما فلسفة الأخلاق اليوم هما المطلقية والنسبية. وبالنسبة إلى الأولى، يرى أصحابها أن المعايير الأخلاقية لكي تكون صحيحة يجب أن تكون "مطلقة"، ومن ثم فإن قضاياها الأخلاقية صحيحة قطعيًا وأبديًا ولا تسمح بإعادة النظر ولا تسوّغها.. والمطلقية سبب النزاعات المأساوية والكارثية، وللحروب التدميرية بسبب الاعتقاد بالتفوق العنصري.

وينبه "فروم" إلى أن هناك مخرجًا، أي أن هناك مجتمعًا جديدًا يعيد للإنسان "إنسانيته"، وهو المجتمع الذي يرتبط فيه البشر برابط المحبة، وتمتد فيه جذور الأخوة والتكاتف، ويتيح للمرء التعامل مع الطبيعة بالخلق لا بالتدمير، ويكتسب فيه كل فرد شعورًا بذاته على أنها ذات قيمة فعالة. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

صبغة الله الهدوي*

قيثارة الشعراء

في الوقت الذي اتسع فيه البحر بجواهره الثمينة، وتعمق بمناظره العجيبة التي عجزت عقلية البشر في إدراكها، وتنوع البر بأشجاره وآكامه، وتلونت جماليته من خلال آلاء ربانية لا حصر لها، ظلت الصحراء رغم رمالها المبعثرة والمتكدسة، وكثبانها المهيبة، تلهم مخايل الشعراء، وتذكي وقود عباراتهم، وتعزف فيهم ألحان الأمل والألم في حين واحد. والصحراء حقيقة جميلة وإن لفها الغموض والهيبة، هي ثرية بعطاءات شعرية بناءة وسعت خيالات المفكرين وأرباب البيان.. فمن عمق الصحراء خرجت الأشعار تتغنى والمعاني تتمنى، ومن بين مسالكها المتعرجة وأطلالها التي تبدو كقينات راقصات سمع الزمان همسات القلب الحي.. فمن رحمها ولدت أمهات الشعر والسحر الحلال.. فما سر الصحراء الذي أبهر الشعراء وأنبت البيان؟ ومن أي معدن خرج

ظلت الصحراء والشعراء كشبه الكليتين من الطحال، وبقيت الرمال الصفراء الملتهبة أمّ القوافي والألحان وموسيقا الطبيعة القاحلة، وتشكلت من تلك الجداول والجلامد سمفونيا الحياة والفناء في وقت واحد.

حراء

الكلام محبرًا؟ ومن أي جبل نحت البيان مزركشًا؟ إن الرحلة إلى أعماق الصحراء عبارة عن متعة جميلة، فيها مناورة ومغاورة، ومداورة وربما مخاطرة.. فيها جمال الوجود الذي لم يظهر للإنسان المتحضر، وفيها كمالية الأخلاقيات التي لا شائبة عليها، فيها حمية وحماسة، وحب وحرب.. وربما وسعت الصحراء آفاق الخيال، وبسطت له رؤى الفكر والأحلام.. حتى الشمس التي تشرق بهالتها المبهرة، وبأشعتها المنتشرة؛ تنسج حبكة شعر أنيق، وتشهد ميلاد شاعر فحل.. وحتى الظباء التي تتوارى من الأعين وتسرح بين النخيل تصدر إلى الشعراء أجمل ألحان القوافي وأحلى ألوان الصور. فكل حركة في هذا المحيط الهادئ، تساوي آلاف الأمواج المتلاطمة في البحار، ووراء كل حركة وسكتة، مفاجآت جميلة تغير بوصلة التاريخ. ولا يخفى السر الكامن وراء تسمية "موريتانيا" ببلد مليون الشعراء؛ فموريتانيا حاضرة الأدب العربي وعراب الشعر والنثر، ولم ينهكها الفقر وما أفناها الدهر، بل ظلت تردد آهاتها عبر كلمات تخرج من آلاف الحناجر، بصوت جميل وبمعنى عميق.. فكل رمال تحكي ألحانًا جديدة، وتنسي الآلام المنكدة الناجمة من الفقر والقحط.

كانت الصحراء منذ القرون الأولى مفجرة الإبداعات، وملحنة الإيقاعات، وظل العرب، يتعايشون مع الرياح الصحراوية التي هبت بصفير عنيف لتنتج فيهم خيالاً إثر خيال، فلم يتركوا الصبا والجنوب والشمال، إلا والقصيدة تطير معها أينما طارت وثارت..

فالتضاريس الوعرة التي توجد في الصحاري، أصبحت تنقش في حنايا الشعراء معان لا حصر لها.. ووظف الشعراء هيبتها وسكونها ووحشتها وصفير رياحها وغير ذلك، في تعبيرات جميلة وتصورات مكتملة الأركان.

ولم يزل الشاعر الذي استنشق هواء الصحراء يحمل في روحه شيئًا منه أينما حل وارتحل. واختلفت الصحراء بكل ما فيها من الروعة والوحدة في مناماته الجميلة، وأسفاره الطويلة، ولم يزل يسير عليها من دار إلى أخرى، ويضرب على أوتارها الخيام، ويعزف قيثارة شعره على تلك الأنغام المستلهمة من الذكريات الصحراوية، يسهر لياليه، يستدعي الأماكن البعيدة ويستحضرها في مخيلته، ويعيد رسمها في شعره بفرشات الحزن والحنين والألم، ويمزجها وفق رؤيته التي تبحث عن السراب تارة والواحة أخرى.

الصحراء والشعر

للعربي مكانة لا تنافس في قرض الشعر، ويعود إليه الفضل في رفع مكانة الشعراء وتوسيع نطاق الإبداع الخيالي؛ فالشعر عضو من أعضائه، وهو بوصلته وميقات قلبه. فقد كان الشعر دستوره ولسان قبائله، وحديثه في البيت والسوق ماضيًا وحاضرًا. وارتباط الشعر العربي بالصحراء كالحلقة المفرغة التي لا تدري أين طرفاها. وكما أن الصحراء أعطت للجزيرة العربية ثروة كبيرة من النفط والمعادن، فقد ألهمت الشعراء على مر القرون.

فمنذ أن تجول امرؤ القيس الملك الضليل في قحالة البيداء، مناجيًا عفاريت الليل، ومسامرًا أبراج الكون، ومخاطبًا سائر الوجود بلغته المتفردة التي لا يفك طلاسمها إلا المبدع النادر، ومنذ أن انطلق الشاعر الفحل يصوغ الاستعارات الجميلة من حقائق الصحراء المتوحشة، ومنذ أن شاطرنا طرفة بن عبد حكايات الصحراء بقوله:

لِخَولةَ أطلالٌ بِبُرْقةِ ثَهْمدِ
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وتساءل الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى بقوله:

أَمِن أُمّ أَوفى دِمْنةٌ لم تَكَلَّمِ
بِحَومانَةِ الدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ

واستدمعنا لبيد بن ربيعة بلحنه الشجي:

عفتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها
بـمنىً تأبَّدَ غَـولُها فَرِجـامُها
فمُدافعُ الريَّان عرّيَ رَسْمُها
خلقًا كما ضَمِن الوُحِيَّ سِلامُها

وهمس في مسامعنا شاعر الطبيعة والصحراء، ذو الرمة، بأسرار تخبأت في جو الصحراء، وتهرب رائد الشعراء أبو الطيب المتنبي من سيف الدولة وهو يقول:

أمَّا الأحبَّةُ فالبَيْداءُ دُونَهُمُ
فليت دُونك بِيدًا دُونها بِيدُ

أصبحت عيوننا ترحل إلى عمق الصحراء، وتتطلع لاكتشاف ما وراء الأسرار الصحراوية التي تكمن في كل حبة رمل من رمالها الصفراء، وتبحث غرائزنا عن كيمياء الإبداع المودعة في أجواء الرمال المستعرة.

ويبدو للقارئ المتأني عبر المعلقات، كمية كبيرة من الألفاظ والاستعارات التي تعبر عن الصحراء وفضائها الواسع.. فكل شاعر جاهلي يحمل في قلبه شتى الإحساسات عن البيئة التي عاشها، ويعرب عن انفعالاته الجياشة من لوعة البين وفراق الأصحاب والحنين ورحلة الأحباب، وبالتالي يستوقف كل من حوله لسماع آهاته المتهدجة المتمثلة في الأبيات الدامعة التي صاغها من صميم الفضاء. فجاءت كلمة الصحراء من خلال ألفاظ مترادفة كثيرة منها البيداء، والمفازة، والسبسب، والبسبس، والفلاة، والتيه، والمهمة، والفضاء، والفيفاء، والقفر، والتيهاء، والبرية، والتنوفة إلى غيرها من الكلمات الغزيرة التي تدلك على عمق الصحراء العربية التي يوهب منها نسيم الشعر الخالص الذي لا تشوبه شوائب التحضر والتمدن. فكلما كان الشاعر قريبًا من الصحراء كان أقرب إلى الشعر بالذات؛ حيث تشكل الصحراء في ذاته عالمًا من الخيالات التي لا يكملها إلا الإبداع العميق والإيحاء الراسخ.

ولا يخفى دور الشعراء الصعاليك الذين انتشوا في رحيق الصحراء، وعاشوا قسوتها وجورها، وصنعوا منها حياتهم ولقمة عيشهم، وامتزجوا في هواء الصحراء القاسي بحثًا عن الحياة والإبداع الذي يحررهم من سطوة الحياة المؤلمة، فأبدعوا رغم مضاضة الفقر وشظف العيش، مبدعون انفلتوا من قوانين القبائل ورسموا الطريق والدستور لأنفسهم، وقرضوا الأشعار ورجزوها ومزجوها بروح الصحراء، فيها الكرم والصفاء والتمرد والتوحش والقسوة والإنكار والرفض، بل ستسمع منها صيحات الفقر وويلات الحرمان والجوع.

ويحتل الشعر الحساني[1] أبرز مكانة في الإبداع الصحراوي، فقصائد تخرج من أعماق الصحراء. ويتكون الشعر الحساني من عدة بحور تصل إلى خمسة وعشرين بحرًا بما فيها بوعمران، إسغير، ولبتيت الناقص، ولبتيت التام.. وله مكانة رائدة في الخيم العربية وجلسات الشاي التي تدلل وجدانات العرب، وتستدعيهم إلى الأيام الماضية الجميلة. سكنت الحسانيات وجدان المجتمع الصحراوي، وعبروا عن مشاعرهم المختنقة عبر هذه الألحان الشعبية، فخرجت الألفاظ حية من بين مطاوي الرمال الذهبية، عربية الهوى، حسانية الروح، لتمثل أمة تتعشق الصحراء وتتناسخ في طيها الواسع.

وظلت الصحراء والشعراء كشبه الكليتين من الطحال، وبقيت الرمال الصفراء الملتهبة أمّ القوافي والألحان وموسيقى الطبيعة القاحلة، وتشكلت من تلك الجداول والجلامد سمفونيا الحياة والفناء في وقت واحد. ■

(*) كاتب وباحث من الهند.

الهوامش

(1) هو كلام منثور يختاره الشاعر ليجعل منه مادته الشعرية.

د. صهباء بندق*

كيف تستشعر خلايانا غاز الحياة؟

أعلنت الأكاديمية السويدية التي تمنح جائزة "نوبل"، فوز ثلاثة علماء بجائزة "نوبل في الطب ٢٠١٩"؛ بسبب اكتشافاتهم فيما يتعلق باستشعار الخلايا للأكسجين والآليات الجزيئية المسؤولة عن تكيف الخلايا مع مستويات الأكسجين المتقلبة. هذه ليست جائزة نوبل الأولى فيما يخص استخدام الخلايا للأكسجين؛ فبين عامي ١٩٣١-١٩٣٨ مُنحت جائزة نوبل لاكتشافات متعلقة باستخدام الخلايا للأكسجين أيضًا. فما الجديد بعد أكثر من ٨٠ عامًا، في العلاقة بين الخلايا والأكسجين غاز الحياة؟

ثمانون عامًا من التساؤلات والجوائز

في عام ١٩٣١، حصل فريق من العلماء على جائزة نوبل، إثر اكتشافهم أن عملية استخدام الأكسجين في تحويل الغذاء إلى طاقة تُدار داخل المصانع الخلوية المعروفة بالميتوكوندريا بواسطة إنزيمات بروتينية معينة. وفي عام ١٩٣٨ أُعلنت جائزة نوبل لاكتشاف وجود ما يُعرف بالجسم السباتي (Carotid body) في جدار الشريان السباتي المغذي للمخ، وهو تجمع

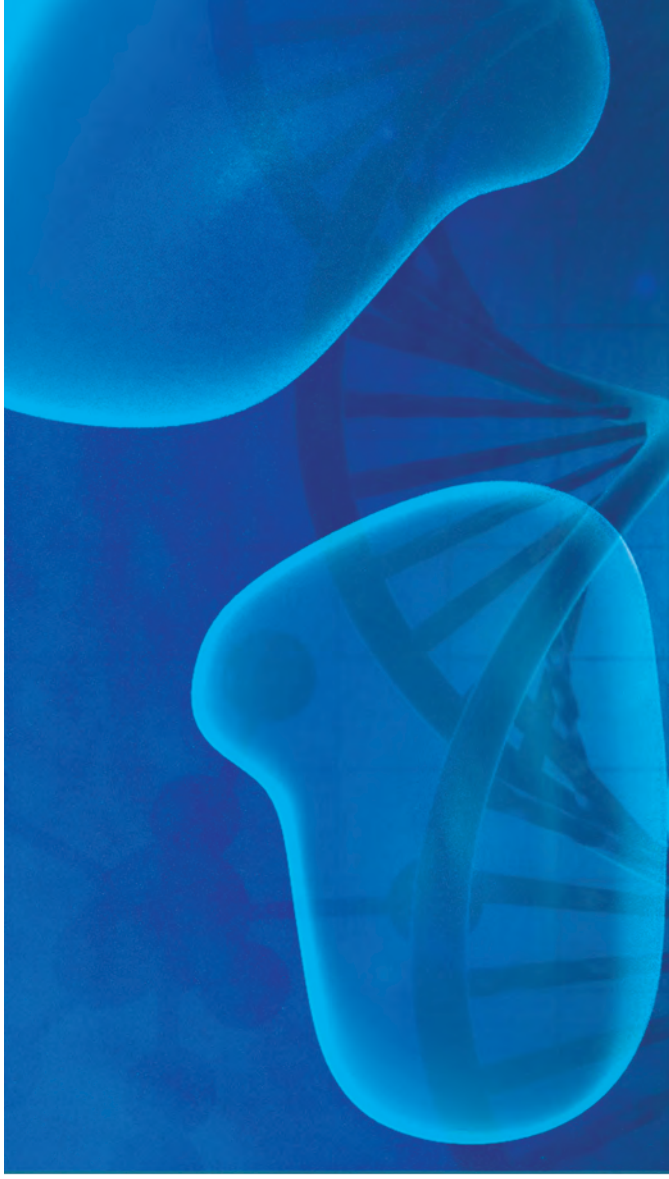

لمجموعة من المستقبلات الكيميائية تحتوي خلاياه على أجهزة استشعار حساسة لتركيز الأكسجين في الدم، ومن خلاله تتحكم الإشارات العصبية من وإلى المخ في تسارع أو تباطؤ حركات التنفس.

وهذا العام تقاسم الجائزة ثلاثةُ علماء، أمريكيَّيْن وبريطاني، هم "وليام كايلين" من جامعة هارفارد الأمريكية، و"جريج سيمينزا" الباحث في جامعة جون هوبكنز الأمريكية، والسير "بيتر راتكليف" من جامعة أكسفورد البريطانية، وذلك لإسهاماتهم القيمة في فهم كيفية تفاعل خلايا أجسامنا مع وفرة أو ندرة الأكسجين.

رحلة البحث عن بروتينات استشعار الأكسجين

أنفق العلماء الثلاثة آلاف الساعات في معاملهم مع المجاهر الإلكترونية الدقيقة، لمراقبة تفاصيل تفاعل الخلية مع الأكسجين. راقبوا على المستوى الجزيئي تكيف الخلية

مع نقص وزيادة هذا العنصر الحيوي، إلى أن نجحوا أخيرًا في تحديد الجينات التي تتحكم في هذه العملية. وأيضًا نجحوا في تمييز البروتينات شديدة الخصوصية متناهية الصغر، التي يتم نسخها من الشفرة التي تحملها تلك الجينات داخل خيوط المادة الوراثية "DNA" المشفرة.

بدأت القصة في جامعة جون هوبكنز الأمريكية عندما شرع "جريج سيمينزا" في دراسة الجين المسمى "EPO"، وهو الجين المسئول عن زيادة إفراز هرمون الإيريثروبويتين الذي تُفرزه خلايا معيَّنة في الكلية ويرتفع كلما انخفض مستوى الأكسجين داخل الخلايا، وينخفض كلما ارتفعت النسبة، وهو المتحكم في صناعة كرات الدم الحمراء عندما يتعرض الجسم لنقص الأكسجين. تعمق "سيمينزا" في بحوثه ليكتشف جينًا قريبًا من الجين "EPO"، هو الجين المسئول عن التحكم في رد الفعل الخلوي عمومًا على نقص الأكسجين.

في الوقت ذاته، وعلى بعد أربعة آلاف ميل، كان السير "راتكليف" في جامعة أكسفورد البريطانية، يدرس أيضًا الجين "EPO"، ليكتشف أن هذا الجين وتأثيره التفاعلي يحدث في كافة أنسجة الجسم تقريبًا، وليس في الأنسجة الكلوية فحسب.

تلاحقت بحوث الأمريكي "جريج سيمينزا" بهدف تحديد المكونات الخلوية التي تتوسط تفاعل الخلايا مع نسبة الأكسجين، ليكتشف أن هناك مجموعة أخرى

من البروتينات مسئولة عن الاستجابة لنقص الأكسجين يطلق عليها "HIF". وفي عام ١٩٩٥، نشر "سيمينزا" ورقة علمية ذكرت أنه عندما تنخفض نسبة الأكسجين، تحافظ الخلية على بروتين يعرف باسم "HIF-1 Alpha" وتمنع تحلله، ما يؤدي إلى تراكمه داخل نواة الخلية. أما في الظروف العادية التي يكون فيها مستوى الأكسجين طبيعيًا وفرة الأكسجين، فإن الجزء الفعال من البروتين "HIF-1 Alpha" يتحلل سريعًا ويقل تركيزه بالخلية؛ حيث ينفصل عنه جزيء الـ "Ubiquitin" الذي يمنع تكسيره داخل البروتيوسومات الخلوية المسئولة عن التخلص من البروتينات غير المهمة.

ماذا عن ثالث الثلاثة ويليام كايلين؟

في الولايات المتحدة أيضًا -ولكن في جامعة هارفارد هذه المرة- كان الباحث الشهير في علوم السرطان "ويليام كايلين" يدرس مرضًا وراثيًا نادرًا يعرف بمرض "فون هيبل لينداو" (Von Hippel-Lindau Disease)، وهو مرض وراثي نادر يسبب نمو أورام وتكيُّسات في جسم الإنسان، يزيد فرص إصابة مرضاه بالعديد من السرطانات.

اكتشف "كايلين" جينًا أسماه "VHL" يقلل فرص الإصابة بالسرطان، ووُجد أنه ينقص بشدة الخلايا السرطانية، لكن للغرابة، وجد "كايلين" أن هذا الجين له علاقة بشكل ما بالجينات المتحكمة في رد فعل الخلية على تغيرات الأكسجين، فيما بعد أثبت السير "راتكليف" وجود علاقة مباشرة بين جين "VHL" ومادة "HIF-1α".

وفي عام ٢٠٠١، نشر "كايلين وراتكليف"، بحثَين منفصلَين، يثبتان أن الأكسجين يتحكم في العلاقة السابقة بين جين "VHL" ومادة "HIF-1α"، عبر تغيير تموضع مجموعة هيدروكسيل "OH" في جزيء "HIF-1α". وفي أبحاث لاحقة، اكتُشف الإنزيم المحدد المسئول عن ذلك، والذي يتحكم فيه الأكسجين. وبهذا أصبح لدينا تصور كامل عن كيفية تفاعل الخلايا مع تغيرات الأكسجين تفصيليًا حتى أدق مستوى.

هل بدأنا ننتصر في حرب مكافحة السرطان؟

حدد العلماء الثلاثة، الآلات الجزيئية التي تنظم نشاط الجينات كاستجابة لمستويات مختلفة من الأكسجين، وكشفت الأبحاث التي قاموا بها، عن آلية واحدة من أهم العمليات التكيفية الأساسية في الحياة، حيث وضعوا الأساس لفهمنا كيفية تأثير مستويات الأكسجين على عملية الأيض الخلوية والوظائف الفسيولوجية. مهدت اكتشافاتهم هذه الطريق لإستراتيجيات جديدة لمكافحة السرطان.

فمن المعلوم أن الخلايا السرطانية تسيطر على نظام استشعار الأكسجين في الخلية، بحيث تجعلها تنتج أوعية دموية جديدة، ما يسهل عملية نمو الخلايا السرطانية، ويضمن استمراريتها وتكاثرها لوفرة التغذية الدموية، ولكن من خلال فهم آلية تكيف الخلايا مع إمدادات الأكسجين، يمكن تعديل جينات وبروتينات الخلايا السرطانية المسئولة عن الاستجابة لنقص الأكسجين، بالتالي يمكن السيطرة على الخلايا السرطانية ومنعها من إنتاج أوعية دموية جديدة، وهكذا يمكن محاصرة الورم السرطاني والقضاء عليه.

تطبيقات عملية جديدة

أمراض عديدة يمكن أن تتغير نطاقات البحث فيها بناءً على اكتشافات العلماء الثلاثة، منها -على سبيل المثال لا الحصر- الفشل الكلوي المزمن، وما يصاحبه من أنيميا شديدة بالدم نتيجة عدم قدرة خلايا الكلى على إنتاج هرمون الإريثروبويتين.

وسيسهم هذا الأمر في معرفة الأدوية التي تتدخل في استشعار الأكسجين، لتحفيز الجسم على إنتاج خلايا دم حمراء أو أوعية دموية. وهكذا يسهم الاكتشاف أيضًا في علاج أمراض فقر الدم -وأمراض القلب والرئة يمكن أن يكون لها نصيب- من خلال إنتاج أوعية دموية لعلاج أمراض القلب والرئة، وترميم المناطق المتضررة.

الأكسجين له عامل حاسم أيضًا في عمل جهاز المناعة، من خلال تحفيز إطلاق كرات دم بيضاء عند ضعف الأكسجين لمستوى معين في الخلايا. مجالات أخرى تنتظر نقلات علمية في السنوات والعقود القادمة بناءً على المفاهيم الجديدة، منها دراسات علم الأجنة، والتئام الجروح، وجلطات الدماغ والقلب، والإصابات البكتيرية. ■

(*) طبيبة متخصصة في علم الميكروبيولوجيا الطبية والمناعة / مصر.

hiragate.com

د. إيهاب عبد السلام*

هل للأطفال شعر في التراث؟

نحن نحب تراثنا ونعتز به، ولا يكاد باحث يشرع في بحثه في أي علم، إلا وقف متسائلاً عن جذوره في تراثنا القديم الغني. فأحرى بنا إذا كان البحث في الشعر حتى وإن كان "شعر الأطفال"، أن نقف تلك الوقفة الواجبة، خاصة أن الشعر يمثل الجانب الأكبر من تراثنا العربي الأصيل؟ إن حبنا لتراثنا يكون محمودًا بقدر ما يدفعنا إلى المحافظة عليه، وحسن فهمه والإفادة منه دون تأويل، فاسد أو تفسير مغلوط. ولا يدفعنا ذلك الحب إلى تأويل مبالغ فيه، أو إلى أن نُحمّل تراثنا ما لا يحتمله. وعلى هذا الأساس نتساءل: هل كتب شعراؤنا القدماء منذ العصر الجاهلي وحتى أواخر القرن التاسع عشر، شعرًا للأطفال؟

الواضح أنه لم يفكر شعراء هذه العصور في تقديم شعر خاص بالأطفال، إذ لم يصل إلينا في تاريخ الأدب

العربي القديم خبر عن ذلك، ولم نجد فيما بين أيدينا قصيدة للأطفال كُتبت لهم لغةً وموضوعًا.

ومعلوم أن المفَضَّل الضبّي عندما أسند إليه أبو جعفر المنصور مهمة تأديب ابنه المهدي، تخير له ما عُرف بعد ذلك باسم المفضليات؛ وهي مختارات من عيون الشعر العربي، ولا خصوصية لها بإبداع شعرٍ للأطفال.

شعر عن الأطفال وليس لهم

نستطيع أن نقرر أن القدماء كتبوا عن الطفل، كما كتبوا عن أشياء كثيرة، كالمرأة والناقة والفرس وغير ذلك.. مما تربطهم به علاقة ويمثل مفردة مهمة في حياتهم. وقد حظي الأطفال -خاصة الذكور- بجانب كبير من ذلك؛ فقد كان القدماء يحتفلون بمولد الطفل ويغنون له، ويستبشرون بمستقبله شعرًا ونثرًا، فإنْ مات رثوه رثاء عميقًا مؤثرًا، وهم في هذا وذاك لا يعبرون عن مشاعر الطفل ولا يكتبون له وإنما يكتبون عنه، وعدم التفرقة بين هذين اللونين جعل الباحثين يوردون تحت عنوان "أدب الأطفال في الأدب العربي القديم" أبياتًا للمتنبي يرثي فيها ابن سيف الدولة يقول:

فإنْ تَكُ في قبرٍ فإنكَ في الحَشَا
وإنْ تَكُ طِفْلاً فالأسى ليس بالطفلِ
ومثلك لا يُبكى على قدر سِنّهِ
ولكن على قدر المَخِيلَةِ والأصلِ

وهكذا يستمر المتنبي مجاملاً ممدوحه سيف الدولة فيرثي ابنه، كما جامله في رثاء أمه وأخته. ومثل هذا الشعر مهما بلغ من القوة والجمال، فإنه ليس للطفل وإنما عن الطفل، وإذا أوردناه فإنما يكون ذلك تحت عنوان "الأطفال في الأدب العربي" وليس "أدب الأطفال في الأدب العربي". والنص الشعري الموجه للطفل والمكتوب من أجله، ينبغي أن تتوفر له مواصفات خاصة، وفي تراثنا كثيرٌ من مقطوعات الشعر التي كانت تُغني للأطفال وهم في المهد، لتنويمهم أو مداعبتهم. وقد وردت هذه المقطوعات في كثير من كتب التراث، مثل المستطرف والأمالي والأغاني. وقد عدَّ كثير من الباحثين هذه الأمهودات -كما اعتادوا أن يسمونها- من شعر الأطفال، وأوردوها في أبحاثهم تحت ذلك العنوان، بل إنها تعتبر المثال الأعظم والدليل الأقوى عندهم لوجود شعر الأطفال في التراث، ولستُ معهم في هذا؛ لأن الطفل ليس له دور فيها، ولا يمثل طرفًا من أطراف العملية الإبداعية، وإذا كان يتجاوب مع الأمهودات وينسجم لها، فإن ذلك ليس عن وعي وفهم للنص الملقى عليه، ولا تتعدى تلك الأمهودات كونها أدبًا يبدعه الكبير كأداة يسيطر بها على الطفل، فيكف عن البكاء، وينجذب إليه، وينصت لما يقول، ويستوي في ذلك أن يُغَنّيَ له، أو يتلفظ بألفاظ غير مفهومة، أو يعزف موسيقى، أو غير ذلك.. وذلك النص الذي يستوي في مردوده مع كل ما سبق لا يُنْسَب إلى شعر الأطفال، وليس منه في شيء. وإذا تعرضنا إلى تلك الأمهودات بالتحليل الفني تأكد لنا ذلك؛ فإنها لا تشتمل على أي خطاب موجه إلى الطفل، ولا تتعدى كونها أداة إشغال وإثارة سمعية، نربأ بالنص الشعري أن تكون تلك الوظيفة منتهى غايته.

ينبغي أن تجتمع للعملية الإبداعية ثلاثة أطراف؛ ليكون الإبداع مفيدًا ويؤتي ثماره، تلك الأطراف هي: المبدع، والنص، والمتلقي. وأغاني المهد ليس للمتلقي دور فيها. والنظرة السريعة العابرة -فالأمر لا يحتاج أكثر من ذلك- إلى تلك الأمهودات، سوف تُبَيّن لنا بُعْدَها عن عالم الطفولة.

يروى الجاحظ في -البيان والتبيين- أن العجلان بن سحبان وائل كان يرقص ابنته ويقول مُعَرّضًا بزوجته:

وُهبتُها مِن قَلِقٍ نِطَاقُهَا
مُشَمَّرٍ عُرْقُوبُهَا عن سَاقِهَا
يَكْثُرُ في جيرانها إحداقُهَا

فأخذت زوجته الطفلة، وقالت معرضة بزوجها وهي ترقصها:

وُهِبْتُهَا من شيخِ سُوءٍ أنْكَدِ
لا حَسَنَ الوَجْهِ ولا مُسَوَّدِ
يأتي الأمر بِالدَّوَاهِي الأُبَّدِ
وَلا يُبَالي جَارُهُ إنْ يَبْعُدِ

فأخذ الأب الطفلة وقال يُرَقّصُها:

وهبتها من ذات خلق سلفعِ
تواجهُ القَوْمَ بِوَجْهٍ أخْدَعِ

hiragate.com

من بعد بيضاء لسوأى أربع
يا لهفي من بدل لي موجع

ولسنا في حاجة لأن ننفي نسبة هذا الهجاء إلى شعر الأطفال، فلا يليق أبدًا بعالمهم النقي البريء، ولا يجوز حسابه عليهم لمجرد أن قائله كان يُرَقِّصُ طفلة صغيرة. ومثل هذا الشعر لا يجوز أن يكون للطفل ولا حتى عن الطفل. ومثل ذلك أيضًا ما رواه الجاحظ في "البيان والتبيين" من أن امرأة كانت ترقِّصُ ابنتها وهي تُلَوِّح بالكلمات إلى زوجها أبي حمزة الذي هجرها بسبب إنجابها البنات، فتقول:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا ... يَظَلُّ بِالْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ ألا نَلِدَ البَنِينَا ... تاللهِ ما ذَلِكَ في أيْدِينَا
وإنما نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا ... ونَحْنُ كالأرضِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فما علاقة تلك الطفلة المسكينة بهذه الأبيات المفعمة بالأسى والعتاب الرقيق من زوجة مهجورة مغلوبة على أمرها لزوجها الغاضب، والذي -فيما تقول الرواية- اسْتَمَعَ إلى الأشعار وصالح زوجته؟!

إن من المبالغة الواضحة بل المغالطة أن تُعَدّ تلك المقطوعة وما شابهها، من أدب الأطفال، وإنْ كان الأطفال في تلك السن الصغيرة يسكتون عندما يستمعون إليها؛ فإنهم تجاوبوا مع أصوات منغمة لم يفهموا لها معنى، ولا يعنيهم في تلك السن أن يكون لها معنى. ومثل ذلك كثير شائع على ألسنة العامة.

وذلك ما يؤيده الدكتور علي الحديدي في كتابه "أدب الطفولة"، يقول: "وتوسع العرب في أغنيات ترقيص الأطفال، فبثوا فيها أغراضًا أخرى غير تسلية الصغار والترفيه عنهم والنغم والترقيص، واستهدفوا بها مآرب أخرى يخفونها ويكنون عنها؛ كالمدح والذم واللوم والعتاب والتبكيت والتقريع والاعتذار والتعريض.. وحين تتخذ أغنيات الترقيص ستارًا لهذه الأغراض تخرج بها عن عالم أدب الأطفال، لأنها لم تعد خالصة لهم بل تؤدي أغراضًا خاصة للكبار".

ومن الأمهودات ما هو شعر عن الطفل، يُمْدَح فيه ويُسْتَبْشَر بمستقبله، وهي في مجملها تعبر عن وجدان الآباء ومشاعرهم نحو أبنائهم، ومن ذلك قول الحسن

لم يفكر شعراء هذه العصور في تقديم شعر خاص بالأطفال، إذ لم يصل إلينا في تاريخ الأدب العربي القديم خبر عن ذلك، ولم نجد فيما بين أيدينا قصيدة للأطفال كُتبت لهم لغةً وموضوعًا.

البصري وهو يرقص ابنه:

يا حَبَّذا أرْوَاحُه ونَفَسُهْ ... وحَبَّذا نَسِيمُه وَمَلْمَسهْ
واللهِ يُبْقِيه لنا وَيَحْرُسُهْ ... حتى يَجُرَّ ثَوْبَه وَيَلْبَسهْ

ومما يحكيه صاحب المستطرف، أنه كان لأعرابي امرأتان، فولدت إحداهما جارية، وولدت الأخرى غلامًا، فرقصته أمه يومًا وقالت معايرة لضرتها:

الحمد لله الحميد العالي
أنقذني العام من الجوالي
من كل شوهاء كشن بالي
لا تدفع الضيم عن العيالِ

فسمعتها ضرتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول:

وما عليَّ أن تكون جاريةْ
تغسل رأسي وتكون الفالية
وترفع الساقط من خمارية
حتى إذا بلغت ثمانية
أذرتها بنقبة يمانية
أنكحتها مروان أو معاوية
أصهار صدق ومهور غالية

ومنها أيضًا قول أعرابية تُرَقِّص ولدها:

يا حبذا ريح الولد ... ريح الخزامي في البلد
أهكذا كل ولد ... أم لم يلد مثلي أحد

وقد يتوفر للأمهودات الوزن المناسب للأطفال والمعنى السهل، ولكنها لا تمثل موضوعًا مهمًّا لهم، والأطفال في المهد لا يفهمون ما يقال، ولا تتحقق المتعة من الشعر إلا بعد الفهم، فالفهم والمتعة وجها عملة واحدة. فلا ينبغي معاملة طفل المهد على أنه من جمهور الشعر، واعتباره يمثل دورًا كمتلق له، فهذا يأتيه بعد تجاوزه مرحلة المهد، وقدرته على النطق وفهم اللغة، وتكوينه لقاموسه اللغوي الأول.. وذلك

hiragate.com

يجعلنا نُخْرِجُ مطمئنين كل ما ترنم به الآباء والأمهات للأطفال في مهدهم من دائرة شعر الأطفال، وذلك ما يذهب إليه بعض الباحثين؛ يقول دكتور هادي نعمان الهيتي في كتابه "ثقافة الأطفال": "ونجد في التراث الشعري العربي فيضًا من المقاطع التي كانت تغنى للأطفال عند تلعيبهم أو تنويمهم، ومن بين هذا التراث ما هو أغاني مهد ترنمها الأمهات لأطفالهن عند تنويمهم، وأغاني ملاعبة يرنمها الكبار للأطفال أثناء اللعب. وقد أُطلق مصطلح أغاني (ترقيص الأطفال) على هذا الموروث الشعري.. وهذه الموروثات ليست في عداد أدب الأطفال".

أما ما ورد من ألغاز، يستدل بها بعض الباحثين على وجود شعر الأطفال في التراث. ففي رأيي، أن أكثرها ليس شعرًا من الأصل، فضلاً عن أن يكون شعر أطفال، إنما هو نظم كالنظم التعليمي، لا يتوجه إلى الوجدان ولا سبيل له إليه، وإنما يخاطب العقل. وتنمية الوجدان هي الهدف الأهم لشعر الأطفال، وإذا كان ثمة تعليم في الشعر أو من خلال الشعر، فينبغي أن يكون طريقه الوجدان، وفي سياق نص لا يفتقد جماليات النص الشعري. ومن أمثلة تلك الألغاز التي أوردها صاحب المستطرف وأفرد لها بابًا في كتابه قولهم في الموز:

ما اسمُ شيءٍ حسنٍ شَكْلُه تَلْقاه عند الناس مَوْزُونَا
تَـراه مـعـدودًا فـإنْ زِدْتَـه واوًا ونونًا صار مَوْزُونَا

ثم إن من تلك الألغاز ما ينأى عن الطفولة وتنأى الطفولة عنه؛ إما لوعورة لفظه، أو لصعوبة فهمه، أو لقبح معناه، مما يجزم بأن تلك الألغاز لم تكن سوى مادة للسمار من الكبار، يلهون بها في سمرهم، ولم تكن للأطفال أية علاقة بها.. كما أنهم في بعض الألغاز ذكروا الطفل مثالاً على الجهل والعبث بالشيء؛ مما ينفي توجههم بذلك للطفل؛ وذلك كقولهم في الخشخاش:

وما قبة مبنية فوق شاهق
لها علم يحكى الملاحة بالظرف
وأولادها في بطنها في جماعة
يكونون ألفا أو يزيدون عن ألف
ويأخذها الطفل الصغير بجهله
ويقلبها عسفًا على راحة الكف

وقولهم في فيل:

أيما اسم تركيبه من ثلاث
وهو ذو أربع تعالى الإله
حيوان والقلب منه نبات
لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن إذا ما
رمت عكسًا يكون لي ثلثاه

وبتحليل المقطوعة السابقة، نجدها غير مناسبة للطفل لغةً ووزنًا وصياغةً ونحوًا؛ فالجملة الاعتراضية في آخر البيت الأول لا يفهمها الطفل، ولا يستسيغ صياغتها نحويًّا، حيث إنه في سِنِيه الأولى يفهم المعنى جملة واحدة، ولا يستطيع أن يفرق بين الجملة الأساسية والجملة الاعتراضية، وفي البيت الثاني لا يفهم الطفل "القلب" غير أنه قلب الحيوان، وليس القلب بالمعنى الصرفي، كما أن عودة الضمير في "يكن" على الحيوان وعودته في "يرعاه" على النبات، وفي "جوعه" على الحيوان.. كل هذا يشتت الطفل ويحجب أي معنًى عنه. وفي البيت الثالث تقديم الخبر على المبتدأ في الشطر الأول منه، وصعوبة المعنى المقصود في الشطر الثاني تجعله ينأى كثيرًا عن مواصفات شعر الأطفال، هذا بالإضافة إلى غموض كلمة "تصحيفه".

والأبيات الثلاثة جاءت في وزن الخفيف، ذلك البحر المركب الذي تتبادل فيه التفعيلتان "فاعلاتن" و"مستفعِ لن". والأوزان المناسبة للطفل عادة ما تكون من مجزوء البحور أحادية التفعيلة.

الغريب -رغم كل ما سبق- أن أحد الباحثين يرى أن تلك المقطوعة مناسبة للطفل، لمجرد أنها تتكلم عن الفيل، والفيل حيوان يحبه الأطفال، متجاهلاً كل ما تشتمل عليه من سمات تبعد بها كل البعد عن عالم الطفولة البسيط. ■

(*) شاعر وأديب مصري.

hiragate.com

محمد أنس أركنه*

التلال الزمردية
مقاربة معاصرة لفهم التصوف

شهد التصوف الإسلامي عبر تاريخه الطويل، العديد من الشخصيات الرائدة، والتي استطاعت بقلبها العرفاني وعقلها المعرفي أن تُعيد التصوف إلى إطار المعايير الإسلامية السُّنّية وضوابطها.

من تلكم الشخصيات في هذه الحقبة المعاصرة يأتي الأستاذ محمد فتح الله كولن بكتابه "التلال الزمردية"، والذي -بلا شك- سوف يأخذ مكانه كأحد المراجع الرئيسة للتصوف الإسلامي السُّني على غرار الإمام الغزالي والإمام الرباني والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي؛ إذ إنه يضع -وعلى نطاق أوسع- المصطلحات الصوفية على أساس صحيح من خلال ترسيخه مبادئ "الحذر واليقظة" للمعنويات الإسلامية السُّنية، ثم إن حساسيته واهتمامه وحذره الشديد حول المشاهدات الصوفية، لا يشكل جانبه الذي ينعكس منه على المقالات الواردة في الكتاب فحسب، فكل قارئ، أيًّا كان حجم درايته بعالم التعبير والأسلوب والفكرة؛ يعرف هذا الاهتمام والحذر والعمق من خلال عالمه الروحي والفكري والاجتماعي كله.

كولن وتحليل مفاهيم التجربة الصوفية

بدايةً يجب القول إن هذه الدراسة ليست دراسة عامة لتاريخ التصوف الذي يجري فيه تناول التحولات الروحية والمعنوية التي عاشها الصوفية المسلمون عبر التاريخ الإسلامي، إنه بصفة عامة، يعبر عن المبادئ التي تقوم عليها المعنويات الإسلامية؛ وعن تحليل راشد تمخَّضَ عن عقلٍ كفء ومرجعي في العلوم الإسلامية بشأن عالم مفاهيم التجربة الصوفية الإسلامية ومصطلحاتها.

إن "التلال الزمردية" عبارةٌ عن تحليل تلك العيون للتصوف الإسلامي تحليلًا منهجيًّا، يتم من خلال التقاطه وتصفيته عبر معايير حساسة، إن عمله هذا ليس ساحةً تلاقت فيها التجارب الصوفية على منوال باقي الأعمال الغابرة، على العكس من ذلك، إنه يحرص بشدة على إبقاء مختلف الخبرات والأحوال المعنوية والروحية، داخل دائرة التشريع الإسلامي السنّي بحساسية ومسؤولية كبيرين.. وبعبارة أخرى، إنه من خلال تفسيراته حول المصطلحات الصوفية، يكشف الأسس الشرعية للفكر الصوفي السنّي، ومن ناحية أخرى، فإنه إزاء حتى أكثر التعبيرات تجاوزًا وغرابة للمرجعيّات الصوفية، كان يحاول أن يتناولها من جانبها الذي يحافظ على بقائها داخل حدود الشريعة، ويتبع

منهجًا توفيقيًّا وتأليفيًّا قدر المستطاع.

وكما هو معروف، كانت هناك عاصفة مستعرة حول بعض المفاهيم الصوفية في التاريخ.. ومع ذلك فإن الأستاذ محمد فتح الله كولن يتعامل مع مثل هذه المفاهيم والتفسيرات بحساسية كبيرة وشعور واعٍ بالمسؤولية، إن ما يُعرف في التصوف الإسلامي باسم "الشطحات"، يشكل أحد" المناطق الخطرة" في التصوف الإسلامي، وقد تحقق تفسيرها وإبقاؤها ضمن حدود الشريعة فقط على يد أشخاص يتصفون بالمرجعية والحصافة في تاريخ التصوف الإسلامي؛ لأن هذا العمل بينما يتطلب إحاطةً وشمولًا من جهة، يتطلب إحساسًا حقيقيًّا بالمسؤولية من جهة أخرى، وإلا فلا مفر من ارتكاب الخطأ الذي وقعت فيه بعض المقاربات السلفية المعاصرة، إنهم ومن أجل الحفاظ على ما يسمى بالحدود الظاهرية للشريعة الإسلامية، اتجهوا إلى إنكار هذه التجربة الإسلامية الواسعة إنكارًا تامًّا؛ فتسببوا في حدوث ضحالةٍ مذهلةٍ في المعنويات والحكمة الإسلامية والحكمة في مثل هذه المفاهيم.

ولو جاز التعبيرُ فالتلال الزمردية تعيد صياغة التصوف وتحلله وتنظمه ضمن مبادئ الإسلام السني لإبقائه في قلب التقاليد الإسلامية، ويمكن القول إن المصطلحات الصوفية تخضع لتفسير جديد لأول مرة بهذا القدر، ومثل هذه العملية المجهِدة تتطلب بالطبعِ وعيًا ووقوفًا عميقًا على جميع العلوم الإسلامية تقريبًا، ومن خلال استخدام هذه المرجعية وتفعيل هذه الحساسية؛ قرَّبَ الأستاذ المحترم المصطلحاتِ الصوفيةَ إلى عالم العقل والسلوك لدى المسلم المعاصر.

شرح معرفي عرفاني

التلال الزمردية، وإن لم يتناول المدارس الصوفية الإسلامية بالدراسة من حيث وجهات نظرها واصطلاحاتها وطرق تفكيرها، إلا أنه ركز بعناية وحساسية فائقة على المفاهيم المركزية للتصوف..

في التلال الزمردية تُقدم وجهات نظر الصوفية بشأن الوجود، ووجهات نظرهم بشأن علم الكلام، ونظريات المعرفة، ولكن في إطار ثقافة وفلسفة صوفية منظمة ومنهجية إلى حد كبير، وبالطبع لا يتم التعبير عن كل هذا تحت هذه العناوين مباشرة، بل من خلال المفاهيم الأساسية للتصوف.

هنا يقدم الأستاذ محمد فتح الله كولن تفسيرًا قويًّا للمفاهيم الصوفية مثل حكيم حاذق متخصص بالمعاني، وينادي نداء بصير، ليس فقط على مفاهيم العلم والحكمة التي تشكلت في التجارب الخاصة للصوفية فحسب، بل وعلى مفاهيم العصر الجافة التي صارت غريبة على ذاتها وأكثر مادية.

التلال الزمردية لا تصنع فلسفة صوفية جافة بحتة، فلا تقتصر أي من مباحثها على نشاط عقلي وفلسفي مكثف؛ فكلُّ مبحث فيها طُوِّر بحذر وتيقظ عقلي وفكري حقيقي ينتهي بترسيخها على أساس عملي في الحياة الفردية والاجتماعية بالنسبة لمن نذروا أنفسهم لخدمة الحق في هذا العصر، وهذه الحساسية تستند، في الوقت نفسه، إلى مبدأ أساسٍ لتجربة التصوف الإسلامي السني أيضًا.

التلال والتصوف الاجتماعي

ويتمسك الأستاذ بمبدأ آخر، ألا وهو "حقيقة ضرورة أن تكون الولاية وريثة لمهمة "النبوة". وهذا يعني أنه ينبغي للتصوف الإسلامي، على الرغم من كل عمقه، أن يخاطب سلوكيات الأفراد الاجتماعية، والحماسَ والإثارةَ التي يشعرون بها عند تبليغ الإسلام، وكذلك مشاعر الإحسان والتضحية وكل أنواع الخير التي سيفعلونها لصالح الإنسانية، بقدر ما يميل إلى تحسين جوانبهم الأخلاقية والروحية والعرفانية، بحيث تكون على الوجه الأكمل، فإن لم يتحول إلى مشروع اجتماعي، ولم يعمل على رفعة الناحية الأخلاقية والروحية العامة للمجتمع، مثلما يُربي نفوس الأفراد واحدًا واحدًا، فقد اعتبر ذلك غير مقبول.

تستند التلال الزمردية في تفسير المفاهيم والمشاهدات الصوفية على "الصحو والتمكين"، لأن الصحو والتمكين لا غنى عنه، مثله مثل أصل من أصول الدين؛ فجميع التكاليف الشرعية تخاطب العقل والفطرة السليمة والنفس الواعية، وإنها لَحقيقة أن العمق المعنوي في الإسلام يتضمن منطقةً تتجاوز معايير العقل ومقاييسه بشكل مباشر.

وبمعنى آخر: هناك مجالات للعمق الصوفي؛ بحيث إن الأحاسيس العالية والتجارب والاكتشافات

hiragate.com

والمشاهدات لا تكون غالبًا مجرد أنماط من التعبير اللغوي، وليست حقائق يمكن التعبير عنها وفهمها بقوة العقل وحده في الإدراك والفهم.. والصوفية في مثل هذه الأماكن إما أن يُفسحوا مكانًا للعبارات التي تستند إلى الحذر واليقظة بصفة عامة، أو يسكتوا عنها، أو يلجؤوا إلى العبارات التي تتجاوز الحدود العقلية والشرعية وتُسمى بـ"الشطحات" في التراث الصوفي..

كيف رأى كولن شطحات الصوفية؟

إن "الشطحات" واحدة من أكثر مناطق التصوف الإسلامي خطورة، إنها تشير إلى انهزام الصوفية لمشاهداتهم وتعرضهم لأحوال الجذب والسُّكْرِ المعنوي، وبمعرفة وحساسية ومسؤولية إيمانية وحكمة كبيرة يقترب الأستاذ كولن من العبارات التي تنبئ عن شطحات، وعبر كشفه عن الجوانب التي ما زالت ضمن حدود التشريع الإسلامي في مثل هذه التعبيرات؛ فإنه يجذبها إلى المبادئ السنية المركزية ويفسرها.

ووفقًا للمبدأ المقبول الذي يحظى بقبول عام في التصوف الإسلامي السني، فقد التُمس العذر لأصحاب مثل هذه الأحوال والعبارات على اعتبار أنهم يعيشون حالة من السكر المعنوي والجذب، أما في حالة الصحوة واليقظة، فلا تُقبل مثل هذه العبارات، ولقد حافظَ الأستاذ محمد فتح الله كولن بتفسيراته هنا، على الاحترام والأدب الرفيع للسلف عاشقي هذه المعرفة، وقدم تفسيرًا حكيمًا لمثل هذه الأحوال والسلوكيات، فوضع بذلك مبادئ المنهج في مقاربة هذه الأمور، في حين حدثت عبر التاريخ الإسلامي مواقف محزنة بسبب الاقترابات الضحلة التي مُورست تجاه المنتسبين إلى أهل السُّكْر المعنوي والجذب.

"التلال" إبراز للمعنويات الإسلامية بلغة العصر

التلال الزمردية لم تظهر باعتبارها سلسلة تم التفكير فيها والتخطيط لها مسبقًا؛ فقد بدأت تتشكل تدريجيًّا نتيجة للحاجة، وكما هو معروفٌ فما جلس الأستاذ ولا بدأ في الكتابة أو الحديث عن أي فكر لم يمر بألم المخاض، لم يكتب لمجرد الرغبة في الكتابة، فالفِكرُ عنده متداخل مع الحركة والعمل.. فكما أنَّ كلَّ عمل يتغذَّى بفكرة معينة، فإن

إن التلال الزمردية واحة من مجالس الله تجذبنا إلى هدفنا المتمثل في الوجود من جديد في زمن يمكن فيه للمشاغل الدنيوية والمادية أن تستحوذ على اهتماماتنا الفكرية والعقلية والقلبية، كما أنها تربط كل اهتماماتنا البشرية وتوصلها بما وراء الغيب.

حراء

كل خطوة وحركة تمهد الطريق لأفكار ومشاريع جديدة.

إنني كشأنِ كثيرٍ من الناس كلما مر الوقت وبدأت التلال الزمردية تتجسّد، بدأتُ أُلاحظ نشوءَ اهتمام وميلٍ متزايد نحو المعنويات الإسلامية في كل من العالَم الإسلامي والغرب، ومن الواضح أن مثل هذه الاتجاهات، عقليًا وفكريًّا وسيرًا وسلوكًا، ستصير أكثر أهمية في المستقبل القريب، فالحركات المتشددة والأساليب الفكرية الكثيفة ليست مطلوبة اليوم كثيرًا سواء في الشرق أو الغرب، فالبشرية في كل مكان في حاجة ماسة إلى تركيبة معنوية وروح الوحدة، ولا يمكن أن يتشكل التسامح والمصالحة والحوار والإخاء إلا على أكتاف الأشخاص الذين يتمتعون بهذا العمق الروحي والمعنوي.

أدرك الأستاذ هذه الحاجة مقدمًا، وتصديًا منه للانحرافات الصوفية والفكرية والقلبية المحتملة تناول مبادئ ومفاهيم التصوف والمعنويات الإسلامية في إطار مبادئ الإسلام السُّني؛ مفسّرًا إياها بأسلوب جديد وغني، ومن ناحية أخرى، فإن اليوم يشهد حالة من الاستغراب تجاه المعنويات الإسلامية تُشعر بوجودها بالفعل، فالمسلمون يواجهون تحديًا من كل من القيم الغربية وحياة الرفاهية الناتجة عن التكنولوجيا المادية الحديثة، وهذه المرحلة تجبر الهوية الإسلامية والشخصية الإسلامية على تحول روحي ومعنوي في العديد من المجالات.

إن التلال الزمردية لتشكّل نوعًا من الدفيئة والحصن ضد مثل هذه النزعات المادية والعقلانية التي تهدد النفس الإسلامية، إنها نتاج جهود تسعى إلى أن تجذب من جديد العمليات الفكرية والعقلية والقلبية المشتتة إلى قلب التقاليد ومركزها.

التلال الزمردية جهدٌ يرتكز على "الحكمة والمعرفة"

hiragate.com

ويدعو إلى فهم أعمق وأكثر إدراكًا للإسلام تصدّيًا لفهمه فهمًا جافًا وفظًا وشكليًا.. إنها تلفت الانتباه إلى التجربة المعنوية والمعرفية العميقة للتقاليد الإسلامية، في مقابل تعاليم العصر المادية والوضعية، التي تُرجع كل شيء إلى عقلانية جافة سعيًا إلى تحقيق النجاح والكفاءة فقط على الأسطح الخارجية، إنها التلال تدل على أن الفضيلة والسمو ومصدر الإنسان الكامل ليس موجودًا في تلك العقلانية والشكلية الجافة، ولكن في التقليد المديد للإسلام نفسه، وبدون استكمال هذه التحولات الروحية والمعنوية، فلن تستطيع المجتمعات أبدًا تربية أناس فاضلين وسامين، ومن هذه الناحية فإن التلال الزمردية تمنح الداخل والخارج على حد سواء -أي الإنسانية جمعاء- أفقًا وهدفًا معينًا.

الشعر الصوفي ودوره في الحياة المعنوية

التلال الزمردية مع أنها جاءت بأسلوب النثر بشكل عام، إلا أنها من خلال تقديمها نماذج من الشعر الصوفي تجعل مباحثها أكثر إثارة وتشويقًا، فكما هو معروف، لم يكن التصوف الإسلامي في صورة النثر فقط، بل ضمّ شعرًا وأدبًا أيضًا، فكثيرًا ما تتجاوز التجارب والحواس المعنوية حدود التعبير والأسلوب العادي، حيث تخاطب ميول العاطفة الأعلى عند الإنسان، إن الشعر الصوفي مهم من حيث إظهاره الحدود العاطفية والحسية التي تصل إليها الأحاسيس المعنوية، بل يمكن القول إن العديد من الصوفية فضلوا التعبير شعرًا عن تجاربهم ومشاهداتهم الخاصة؛ لأن لغة الشعر العالية وقوته التعبيرية أكثر إثارة وحماسة، وأقوى بكثير مقارنة بغيرها من وسائل التعبير العادية، علاوة على ذلك، فإن تجاوز الحدود الإنسانية والعاطفية يبدو أسهل عبر الشعر.. وبطريقة ما، لجأ الشعراء الصوفية إلى الشِّعر للتغلب على الإطار الضيق لحدود العاطفة والتعبير الإنساني للعقل، إنها منطقة تتجول فيها الأحاسيس والعطاءات العالية بحرّية أكثر.

ولكن ثمة شيء واحد أود التعبير عنه هنا؛ ألا وهو أنني أجد أنه من المهم، ليس فقط من قبيل التقدير، ولكن من حيث الحقيقة التي يحتوي عليها؛ القول إن الأستاذ بكل أحواله هو رمز حي لهذا الفهم المتواضع الفريد لتقاليد العلماء والتكية، إنه يجلب إلى التلال الزمردية عديدًا من المتع الشعرية المختلفة بدءًا من مولانا إلى جامي وشبستري؛ ومن يونس أمره ونيازي المصري وإبراهيم حقي إلى الشيخ محمد لطفي أفندي، ويجعل المباحث الصوفية تتنفس بها، ومع ذلك، لم يقتبس من عملِه الشعري المسمّى "المضرب المكسورة" أكثر من قطعةٍ أو اثنتين، في حين أن هناك أشعارًا في "المضرب المكسورة" تحتوي على أبيات صيغت بذوق وإحساس لغوي عالٍ للغاية خاص بالبعد الروحي والمعنوي للإسلام.

البيان والبرهان والعرفان

إن من السمات الأساسية لفهم الأستاذ كولن للحكمة والمعرفة هو سيره في نظامه الفكري على مستوى "البيان والبرهان والعرفان"؛ فهذه الأبعاد الثلاثة تشكل الخصائص الرئيسة للفكر والحضارة الإسلامية، ومن الممكن أيضًا ملاحظة ذلك في التلال الزمردية، وعلى حين يحلل المشاهدات والتفسيرات التي تشكل شدًّا معنويّا عاليًا في التصوّف الإسلامي مثل أحلك المفاهيم المعنوية، وأحوال الجذب والانجذاب، والسكر المعنوي والجمع والفرق والوجود والتوحيد والفناء بالله والبقاء بالله؛ لم يتجاهل قطُّ مبادئ العقل والمنطق الإسلامي السليم، ونظام المعرفة الإسلامية العامة، والمعايير الرئيسة لمبادئ الحكمة السنية؛ وبحساسية واهتمام وحذر كبير تعامل مع هذه القضايا بطريقة تُقدّم فهمًا إسلاميًّا كلّيًّا، وهذه المسألة لن تغيب عن عيون ذوي البصيرة ألبتة.

وختامًا أقول: التلال الزمردية عبارة عن واحة من مجالس الله تجذبنا إلى هدفنا المتمثل في الوجود من جديد في زمن يمكن فيه للمشاغل الدنيوية والمادية أن تستحوذ على اهتماماتنا الفكرية والعقلية والقلبية، كما أنها تربط كل اهتماماتنا البشرية وتوصلها بما وراء الغيب، إنه رباط يهم المؤمنين من جميع المستويات، ولكنه قد يكون لازما وضروريًا، بقدر الماء والهواء، لا سيما بالنسبة لأبطال الخدمة الذين يكرسون كل جهودهم وهممهم لصالح الإنسانية. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

hiragate.com

د. حسن الأمراني*

عبرات

إذا قال المولّه في الندامى: هنا الخيّام قد ضرب الخياما
فأجّجْ أيُّها الساقي لهيبي بكاسات أذوب بها غراما
أقول، وما أقول مقال نكْر هنا الإسلام يستلم الزماما
وشدَ بكل ناحية رواقاً وألقى نوره فمحا الظَّلاما
ومدَّ جناحه فأوى الحيارى لظلٍّ كان يضطرم اضطراما
كأني والوجيف يهدُّ عزمي وجسمي عند سارية ترامى
أرى جنكير للتَّوحيد يسعى وشاهَ جهانَ صبًّا مستهاما
وقُطْبَ الدين يعلي في اعتداد منار الحقِّ يرفعه وساما
وأبصر عُصْبة الأحْرارِ تترى مواكبها فتختصر الكلاما
أأرضَ الهند والأشواق تزجي كأنّي عاشقٌ بالنُّور هاما
سعتْ قدمي عليكِ فلستُ أدري أحقًّا ما أراه أم مناما
أرى الإسلام فيك قبابَ نورٍ وأنف الشّرك يعتنق الرّغاما
فللتّكْبير في الدنيا ارتفاعٌ وللتّوحيد ألويةٌ تَسَامى
وما زالت محجَّبةٌ سناها يُمِدّ الكون أنوارًا عظاما
وشيخ ساجدٍ يعظ اللّيالي وشبلٍ صائم يرجو قياما
قيامًا يجعل الأيّام تتلو: هنا الإسلام قد ضرب الخياما
أقول وقد تخلّج في فؤادي لهيب الشوق منتشرًا عراما
هنا الإسلام قد ضرب الخياما ربيعًا عارضا هتنا، سلاما

(*) شاعر وأديب مغربي.

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
نور الدين صواش

سكرتير التحرير
عبد السلام كمال أبو حسن

الإخراج الفني
نور الدين محمد

منسق الاشتراكات والتوزيع
علاء الكوابري
+201000780841

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-77

IRAQ
Kani İrfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave.، Clifton، NJ، 07011، USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

للتواصل مع إدارة المجلة | hiragate@yahoo.com
+2 01094338182

رحلة نحو **حياة القلب والروح**

كتاب جديد للأستاذ **فتح الله كولن**

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002

www.souq.com

مكتبة الشروق | Shorouk Bookstores | مكتبة فكرة ستي ستارز

حـراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

الفجر آت

حتّى وإنْ حَلّ الظلامُ مُخَيّمًا والظلمُ بانْ
وبرغمِ أنفِ النّاشرينَ اليأسَ في كلّ المكانْ
الفجرُ آتٍ من وراءِ الغيْبْ
والشمسُ يبزغُ ضوؤُها لا ريبْ
والنور يهْمي من جديدْ
شيئًا فشيئًا سوفَ يغْمرنا المَزيدْ
والقلبُ يشْعرُ بالأمانْ

***

ISSN 2357-0229
9 772357 022004 77
www.hiragate.com